محمد عز الدين التازي

دم الوعول

رواية

الكتاب: دم الوعول.. (رواية)

الكاتب: مُحَمَّد عز الدين التازي

الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التازي ، مُحَمَّد عز الدين

دم الوعول.. (رواية) / مُحَمَّد عز الدين التازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٦٥٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢٧٠١٣ / ٢٠٢٢

دم الوعول

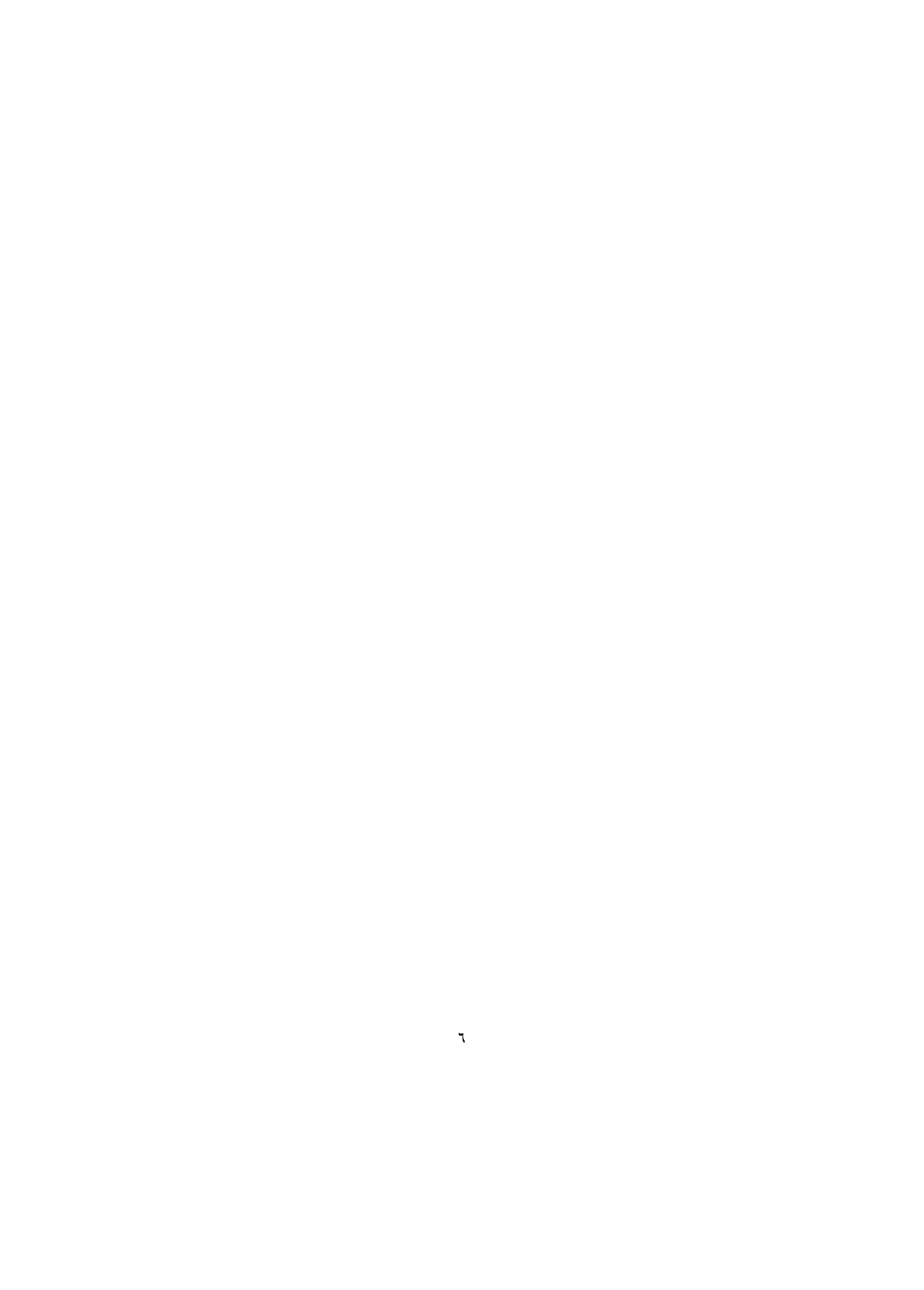




[وكن حلو الكلام، متسق النظام، خفي السرقة لطيف الأخذ واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس، لكلامك لَيْطَةٌ بالقلب، وعبث بالروح، وبرد على الكبد.

ولا تكن غليظ اللفظ، كثير العقد، واهتم بالسلاسة والبعد عن المسلوك، فلا تبرز ما يُخفى، ولا تُكَدِّرْ ما يُصَفَّى، حتى تكون للقارئ منك سكرة في القول، إذا ما أفاق منها خُمِر، وإذا خمر سدر]

ابن ضربان الشرياقي



الباب الأول

[باب في معاناة مصطفى التواتي، ضابط بقسم الاستعلامات، للحاجة إلى الأسئلة، وهي أسئلة تشمل كل الموضوعات التي يمكن أن تفسر شائعة تحول عبد الرحيم الأزرق إلى قزم، واحتمال أن تكون الإشاعة مغرضة تمس بأمن الدولة وأمن المواطنين]

موضوع للتحقيق والبحث

الأخبار التي وصلتنا تقول إن رجلا عاديا تحول إلى قزم. ولدينا كثير من التقارير التي كتبها مخبرون نعرف أنهم أشبه بالأميين، فهم لا يعرفون كيف يشتغلون ولا من أين يستقون المعلومات، لا يدركون من أسرار المهنة غير التبجح بذاتهم وممارسة العنف على مواطنين أبرياء، ولكن جهاز أمن الدولة مع ذلك لا يستغني عنهم.

التقارير تقول إن الإشاعة قوية، وقد انطلقت من مدينة فاس ثم انتشرت في الدار البيضاء والرباط وفي كل المدن بروايات متعددة، وذُكرت لها أسباب كثيرة، حتى صارت موضوعا لخيال الناس يزيدون فيها وينقصون، ولكنهم جميعا يخافون من أن يصبحوا بين عشية وضحاها أقزاما، وهذا الخوف هو ما يجعل الدوائر الأمنية تتحرك لحماية أمن الدولة وأمن المواطنين.

جاء في التقارير أن الرجل اسمه عبد الرحيم الأزرق، ولأن المحققين لا يحققون في شيء، فعليهم أن يأتونا به إلى دائرة الاستعلامات حتى نحقق في الاسم إن كان موجودا بالفعل أم أنه اسم حركي لمفسد أو إرهابي أو تاجر للمخدرات، فقد يكون الاسم منتحلا، لكن من تتبعوا الإشاعات من المخبرين أكدوا على أن صاحب هذا الاسم ممرض في (مستشفى سيدي بوجيدة للأمراض العقلية)، يقارب الستين، مطلق، يعيش وحيدا، ليست له سوابق، كان يعيش حياة عادية، ومعروف بين الناس بقامته العادية، فقد كان متوسط الطول، ولكنه فجأة ظهر كقزم، وهذا كل ما لدينا من معلومات.

غموض يلف الموضوع

حادثة غريبة وغامضة تتعلق بمواطن راجت حوله الإشاعات، ولو كان الأمر يتعلق به وحده لتركناه يعيش قزما ولخضنا في الأمور الجادة التي تهم البلاد، ولكنه مواطن شائعة، والشائعات بالنسبة لنا لها خطورتها وتأثيرها على الرأي العام، يجب أن تُدرس، وأن تستثمر إذا كانت لصالح الدولة، وأن تحاصر، ولو بإطلاق شائعات أخرى، إذا كان الأمر ليس في الصالح العام.

تحقيق مفترض

حينما وصلتنا التقارير من المخبرين أرسلتُ من قسم الاستعلامات من يقومون بالواجب، وأوجب ما عليهم أن يقوموا به هو أن يجدُّوا في البحث عن عبد الرحيم الأزرق، في كل مكان، وأن يأتوني به، حتى أتحقق منه فأعاينه وأفحصه من الداخل والخارج وأقارن بين الشخص الذي وجدناه وهو عبد الرحيم الأزرق وبين ما توصلنا إليه عن حياته من أخبار وعادات يومية وأن نعرف كل شيء عن مزاجه وطبائعه، ومعاملته لأهله ولزملائه الممرضين في المصحة وللمرضى النزلاء، وأن نصل إلى أحلامه وتعليقاته على ما يشاهده في التلفزيون من أخبار أو مباريات لكرة القدم أو مسلسلات، وهل هناك جريدة معينة هي التي اعتاد قراءتها أو النظر في عناوينها، وهل ينتمي إلى حزب معين أو نقابة من النقابة أو جمعية من جمعيات حقوق الإنسان، وهل يصلي الصلاة في وقتها ويتدبر القرآن في تلاوته أم أنه مستهتر بشؤون دينه، هل يشرب الخمر وهل له علاقة بالنساء، وأيهن بالاسم والصفة، فإن وجدنا امرأة كانت له معها علاقة نأتي بها ونسألها عن رائحة جسده وعن عاداته في الجماع وكلمات الغزَل التي كان يقولها، ومتى يصاب بالقوة أو بالعجز.

علينا أن نعرف علاقته وبالأولياء والصالحين وهل يزور الأضرحة، وما دام مُطلِّقا فما هي أسباب الطلاق، وهل زوجته هي التي طلبت الطلاق، وما الذي يقوله الجيران عن خصومات محتملة مع زوجته هي التي أدت إلى الطلاق، وإن كان له أبناء استجوبناهم وسمعنا ما يقولون عن والدهم القزم، هل مزاجه سوداوي أم أنه ضحوك منشرح الصدر، وإذا مان ضحوكا فهل يضحك على نفسه أم على الآخرين، ومن هم الآخرون الذين يضحك عليهم، ألهم علاقة بالجيران ورواد المقهى وزملائه الممرضين، أم لهم علاقة برجال محترمين تطاول عليهم ناسيا قدره ومكانته؟

وكل هذا بطبيعة الحال، هو مشروع أسئلة للتحقيق، ولكن متى نتمكن من الوصول إليه فثمة أسئلة أخرى بانتظاره أنا بصدد التفكير في موضوعاتها.

أسئلة كبيرة يجيب عنها قزم

مادامت الإشاعات تقول إنه رجل يقارب الستين، فلاشك أنه قد عايش كثيرا من الأحداث التي وقعت على مر الخمسين سنة الماضية على الأقل، فابن العاشرة يتذكر ما شاهده أو عاشه من أحداث ووقائع، وربما يكون قد شارك في بعضها، فعلينا أن نختبر ذاكرته في كل المراحل التي عرف فيها المغرب أحداثا كبرى، فنعرف كيف يتذكر معارك تحرير الوطن أيام الاستعمار، وهل يحفظ أسماء الشهداء ورجال المقاومة، وما تعنيه عريضة المطالبة بالاستقلال، ثم نطلب منه أن يكتب لنا سطورا قليلة بخط يده يلخص فيها حياة الملك محمد الخامس وأعماله وفضله على البلاد، وظهوره على القمر، ونفيه مع أسرته إلى جزيرة مدغشقر، وأفراح الاستقلال،

وفجيعة موت الملك، وفرح الشعب بتولي ولي عهده الأمير مولاي الحسن مُلْك البلاد.

المسألة بسيطة. كأنه سوف يكتب موضوعا في مباراة للتوظيف كالتي اجتزناها نحن، وهي ليست مباراة، فهو لن يُوظف ولن يرسب في المباراة، ولكننا فقط، نريد أن نقبض على بعض الكلمات فيما سوف يكتب، وتلك الكلمات سوف تعطينا المفتاح لبعض الأسئلة الأخرى.

سنساعده ولابد. سنوجه أجوبته نحو ما نريد الوصول إليه، وهو أيضا سوف يساعدنا، حتى ونحن نطلب منه أن يلقي على نفسه بعض الأسئلة ويجيب عنها، وإذا رأينا أنه متعب أو ضاق به الحال أو خائف من مقابلتنا نمهله وقتا ليرتاح، ثم نعود لنسأله عن انشقاق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عن حزب الاستقلال، وعما يتذكره من صخب نقاشات أول برلمان مغربي وحيث كان التلفزيون في بداية الستينات ومع أول ظهور له يبث تلك المناقشات الحامية الوطيس بين المعارضة والحكومة، وهو ما أدى بالملك الراحل إلى إعلان حالة الاستثناء، وعلينا أن نسأله ما هي حالة الاستثناء، وهل هو حالة استثناء؟

عليه في هذه اللحظة أن يجيب كما يشاء، بالضحك أو بالبكاء، بالكلام أو بالصمت، وفي كل الحالات سوف نعرف فهمه لحالة الاستثناء.

ثم ما الذي يعرفه عن المهدي بنبركة، ومومن الديوري، وشيخ العرب، وعمر بنجلون، وانقلاب الصخيرات الفاشل، وهل شارك فرد من أسرته أو جار من جيرانه في المسيرة الخضراء المظفرة، وهل ساهم في بناء معلمة

المغرب، مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء بمبلغ مالي، وهل يرى أن مساهمته كانت إجبارا أم تطوعا، وإن أجاب بأنه تطوع فلماذا وإن قال إنهم قد أجبروه على التبرع فمن هم الذين أجبروه وما دليله على ذلك؟

أسئلة أخرى كبيرة وأكبر من القزم، ولكن الأسئلة لا تقاس بالكبر والصغر، بل بما لها من فائدة في الأجوبة.

دموع المحققين

سوف نذرف الدموع ونخبره إننا نتذكر موت الملك الراحل ونبكيه، لنرى إن كان سيبكي مثلنا، وساعتها علينا أن نسأله هل كان يحب الملك الراحل وهل بكى في يوم موته وذرف عليه الدموع مثل التي نذرفها الآن. نطلب منه أن يقول لنا كل شيء بمنتهى الصراحة، فكلنا تحررنا من الماضي، ويمكننا أن نقول كل شيء عن ذلك الماضي، حتى إن بعض رجال السياسة قد تجاسروا كثيرا وتجاوزوا الحد، فعلينا أن ننتقد الماضي بالكثير من الاحترام للموتى حتى وإن أخطأوا في حق الشعوب، فلا تجريح ولا شتائم ولا قدح في ولا مس بالذمم، وإن حدث شيء من ذلك فلن يستفيد منه سوى أعداء الوطن وما أكثرهم.

نتركه ليجفف دموعه وليدعونا إلى تجفيف دموعنا، ثم نسأله أسئلة أخرى، وإن رأيناه قد تعب من أسئلتنا ومن البكاء أمامنا فستطرح عليه سؤالا بسيطا حول شعار المملكة.

تعب الأسئلة

أوف! يبدو أن عبد الرحيم لن يتعب من الأجوبة وأنا تعبت من أسئلة

استغرقت تاريخ الوطن، فالرجل عاصر ثلاثة ملوك.

ولكن لا ينبغي لي أن أتعب، وعليَّ الصبر، فمهنتنا هي مهنة المتاعب. في زمان حقوق الإنسان هذا لا يمكننا أن نبتز الأجوبة من أحد بواسطة التعذيب، وعلينا أن نحترم من نستجوبهم ونقدم لهم الشاي والقهوة، ونمازحهم، ونحاول ألا يبدو تعب المهنة على وجوهنا، أو تبدو الشراسة علينا أو أن نفوه بشتائم جارحة أو أن نتلفظ بعبارات سوقية، فنحن أناس مهذبون، ونعمل في إطار القانون، لا نستعمل العنف، لأنه يشوه سمعة البلد في المحافل الدولية ولدي المنظمات الحقوقية. إن من تسأله أسئلة حول وضعيته فأنت في جميع الأحوال ترغب في أن تصل من أجوبته إلى نتيجة دقيقة تثبت تورطه أو براءته، وكل سؤال يفتح لك بابا للوصول إلى المبتغى، وأنت لست مشحونا بالمعلومات المسبقة، وحتى وإن كان فأنت تتجاهلها وتسعى أن تصل إلى الحقيقة من فم المعني، دون تحايل تلجأ فيه إلى توجيه أجوبته نحو الوجهة التي تريد.

هذا ما نفعله مع جميع الناس، وهي طرق نسعى بها للوصول إلى الحقيقة، حقيقة ما نريد، وما فيه خير للصالح العام، لكننا دائما نعمل بناء على الشك في كل شيء، وفي كل التفاصيل حتى ولو كانت صغيرة، فنمحص فيها بالأسئلة، ونقارن بين الأجوبة وأجوبة أخرى، وفي الغالب نبدأ من أسئلة لا يتوقعها المستجوَب، فنتجه إلى ما لا يخطر على باله، لنتجنب ما يكون قد افترضه من أسئلة فأعد لها أجوبة جاهزة ومضللة، وعلى سبيل المثال يمكن أن نلاحظ لون قميصه فنسأله لماذا اختار له ذلك اللون، أو نلاحظ وجهه فنسأله منذ متى لم يحلق ذقنه وماذا شغله عن ذلك، ومنذ متى

حضر آخر عرس من الأعراس، وما هي نهاية مسلسل "الشموع لا تحترق"، وهل يفضل له نهاية أخرى، ويحتمل أن يجيبنا بأنه لم يره، فساعتها نسأله لماذا، هل كان مشغولا بشيء؟ وأين كان وقت عرض ذلك المسلسل؟ ويمكن أيضا أن نطلب منه بناء على عنوان المسلسل أن يتنبأ بموضوعه، فالمعروف أن الشموع تحترق، وما هو الأمر المعني بالشموع التي لا تحترق؟

كل هذا سوف نفعله مع عبد الرحيم الأزرق متى وجدناه، وسنجده في أقرب وقت ممكن، فرجالنا يجدون في البحث عنه في كل مكان.

رجال مرحون

نحن نحب المرح، بل إننا نجعل من يحضر أمامنا مرحا بالرغم عنه، لنمرح معه، والمسألة كلها مسألة راحة لنا وله، نحن نسأل وهو يجيب، وعندما تتوافق رغبتنا مع رغبته، مائة في المائة، فقد وصلنا نحن وهو إلى الغاية والمطلوب.

نحن لا نصعق أحدا بالكهرباء في الأماكن الحساسة من جسده، ولا نقلع الأظافر

المطلوب بسيط وهو الوصول إلى الحقيقة التي نقدمها للضابطة القضائية، فنحن لا نضرب، ولا نُجلس رجالا ذكورا لم يقرب أحد أدبارهم على القوارير، ولا نحن نعلق أحدا في المعلاق الذي يسمى الطائرة، ولا نقلم أظافر الناس بل إننا نفرض عليهم تقليمها بأنفسهم بمقصات الأظافر حتى لا تكثر الأوساخ والميكروبات تحتها فيتسمم أناس هم على ذمتنا ونحن مسئولون عن صحتهم، فنحن لا نصعق بالكهرباء، ولا نرعب أحدا من أجل أن يعترف، وربما كان شيء يحدث من هذا في وقت مضى، أو لم يحدث

فنحن لا نعترف به ولكن بعض الصحف وبعض جمعيات حقوق الإنسان تضخم الأمور وتزيد فيها استنادا إلى أقوال أناس يرغبون في أن يكونوا ضحايا، وأن تشتهر أسماؤهم على حسابنا. قد يكون شيء من ذلك قد حدث، وهي هفوات أشخاص لا غير. بدأنا اليوم نأخذ حذرنا، فنحتاط، فلا نصفع أحدا ولا نركل أحدا ولا نبصق في وجه أحد، فما بالك بأن نقوم بتعذيب المواطنين على ذلك النحو المذكور. نحن اليوم في العهد الجديد، وعفا الله عما سلف، وقد طوينا صفحة الماضي.

هل عبد الرحيم الأزرق قزم بالفعل؟

السيد الذي أريده أن يكون أمامي اليوم، هو عبد الرحيم الأزرق، وأريد أن أراه لأعرف هل هو قزم بالفعل، فإن لم يكن قزما فسأسأله عن الإشاعة، ومن أطلقها، وكيف ذاعت وانتشرت حتى وصلت إلى بعض المدن، وما الهدف من إطلاقها، وإن كان قزما فسأسأله عن عبد الرحيم الأزرق الآخر، الممرض في مستشفى الأمراض العقلية، المعروف بقامته العادية لدى جميع الناس، أين هو، وما علاقته به، هل سبق له أن سمع عنه، وهل هما معا من أسرة واحدة هي أسرة الأزرق أم أن من قبيل المصادفة وجدا يحملان نفس الاسم، وما هي أوجه الاختلاف بينهما، في أي شيء، مثلا، في التفكير، في العادات، في تفضيل الشاي على القهوة، أو تفضيل الكوكاكولا عليهما معا.

إن أبكيناه فسنعتبر ذلك من قبيل الضحك الذي يدمع عيني الإنسان، ولكننا سنحلل دموعه لنرى كم نسبة الأملاح فيها، لنعرف هل هي دموع حقيقية أم دموع تماسيح.

سهولة وصعوبة التحقيق

أنا أحب التحقيق في القضايا التي يلفها الغموض، وأما القضايا الواضحة فأكلف بها هؤلاء الكسالى الذين يقضون نهارهم في المكاتب يتظاهرون بقراءة الجرائد، وهم يمططون أذرعهم، وإن تثاءبوا فالواقف بالقرب منهم يشم رائحة الخمر.

يقولون إنهم يكتبون المحاضر على الآلة الكاتبة بيد واحدة هي اليمنى بينما اليد اليسرى تحمل المطرية، حتى وهم داخل المكاتب، بسبب المطر الذي يتسرب من السقوف.

أعرف أن كل واحد منهم يحصل على دخل يومي لا يقل عن خمسمائة درهم، فهم يجدُّون في إلقاء القبض على المهربين ومعهم الحشيش، ثم هم أنفسهم يرسلون من يخبر ذويهم أو معلميهم ليأتوا برشوة يدعون أنها لمدير الأمن، ويطالبون بالإسراع بذلك قبل كتابة المحضر، فيأخذون المال ويطلقون سراح من كانوا قد اعتقلوه، ويحجزون الحشيش لتسليمه لمن يبيعه من جديد، ليعتقل من جديد، ويأتي من يدفع عنه الرشوة من جديد، وهكذا دواليك.

أعرفهم، ولكن ماذا أفعل والكل يعرف هذه الحال؟ أنا لست المسيح عيسى بن مريم لأخلص العالم من الشر، مصطفى التواتي مجرد ضابط في الاستعلامات والقضايا ذات الطبيعة السياسية هي التي تهمني، فأنا أعرف إضراب الطلبة قبل أن يقع، وأسماء الخطباء وما قالوه في الخطب، وتجمعات المساجد التي لم تبنها وزارة الأوقاف ولا عينت عليها قيمين وإنما هي مساجد

في دور أرضية لبعض العمارات، لا يُخطب فيها للجمعة بالخطبة التي أرسلتها وزارة الأوقاف للخطباء، ولا يُدعى فيها لأمير المؤمنين، وتسجيلاتها موجودة عندي في المكتب، بأصوات خطباء لباسهم أفغاني ولهجتهم حجازية، وتعظيمهم لأسامة بن لادن يصل إلى التأليه، وشتائمهم لأمريكا وللحكام العرب هي التي تستغرق معظم الوقت، فأي صلاة جمعة هذه التي لا تشيع الخشوع في النفس والطمأنينة في القلوب بل تحرض على الكراهية وتحول المواطن إلى قنبلة موقوتة؟

ها هم الضباط الآخرون في مكاتبهم يتهيئون لغنائم يومهم، ويتركون لي التحقيق في الملمات، في المصائب التي تحل بهذا الوطن، ولكن أنا فرح بالتحقيق في هذه الملمات والمصائب، وأخطرها الشائعات.

إشاعة عن انتحار مسئول كبير

مرة وصلنا بلاغ عن انتحار مسئول كبير، ثم تبين أن الشخص المنتحر يتشابه معه في الاسم، والناس سمعوا اسم المنتحر فحسبوه هو ذلك الرجل المشهور، وراجت الإشاعة، حتى اضطر ذلك المسئول الكبير للظهور أمام الناس في الشوارع والمقاهي والأماكن العمومية، بل إنه في يوم ظهوره على شاشة التلفزيون لَمَّحَتْ له مُعدة البرنامج مرضية بنت الشعط إلى الإشاعة فسألته عن رأيه في الانتحار. رد بأنه جبن، مروق عن الملة والدين، خلل، والمنتحر لا يرضى عنه الله ولا يرضى عنه الناس. نظرت مرضية إلى الكاميرا لترسل من عينيها الماكرتين رسالة للنظارة مفادها هو تفنيد شائعة انتحار المسئول الكبير.

لكن شائعة أخرى انتشرت، مفادها أن ذلك الرجل الذي يتعمد الظهور في الأماكن العمومية، والذي جاءت به مرضية إلى برنامجها التلفزيوني الشهير ليس هو المسئول الكبير وإنما هو شبيه من أشباهه كان يستعمله لأغراض أخرى حينما يرغب في أن يختفي ويترك لشبيهه أن يظهر مكانه، فما العمل؟

ما العمل؟

عبد الرحيم الأزرق يستحم في (حامة مولاي يعقوب)

إن عثرنا على عبد الرحيم الأزرق، فكل تلك الأسئلة السابقة سوف تندرج وفي إطار من الفكاهة، وستأتي مخللة بأسئلة أخرى، من مثل: هل تحب أكل البقول والملوخية والحلزون؟ وعلى ذكر الحلزون، فما رأيك في قرون استشعار الحلزون، وما الذي يستشعره بها الحلزون، وهل يعجبك الاستحمام في الحامة، نعني، الغطس والاختفاء عن أنظار الناس، تحت الماء، وكم تدوم مدة الاختفاء في ذلك الغطس في الصهريج، نعني، في المسبح؟ ألا تضايقك رائحة الكبريت، والعاهات والقروح التي يأتي إلى الحامة من يتداوون منها، وهل تفضل ذلك في الغطس في الصباح أم في المساء، يعني، متى تغطس، أي متى تختفي عن الأنظار وأنت تحت الماء، حتى والماء هو ماء الحامة الكبريتي الشديد الحرارة؟ وما الذي تتذكره عن الصهريج القديم؟

إن جاءته ذكريات العوم في الحامة، وبدا متحمسا للسباحة في الماء الكبريتي في المسبح فلننقل الجلسة إلى مكان آخر، فليس لدينا من مانع، فنحن نوفر له الجو الملائم الذي يسمح له باستحضار الذكريات، حتى وإن

اقتضى الأمر منا أن نأخذه إلى أماكن تلك الذكريات.

حتى الحلزون نفسه، يمكن أن نأتي به مطبوخا في مرق لذيذ له عبق ورائحة الزعتر، فنذيقه منه، وساعتها يمكن أن نسأله عن الحلزون، وعن قرون استشعار الحلزون.

وهل من عيب في أن نسأله عن الوالدة رحمها الله إن كانت قد ماتت، أو أبقاها الله له وهي ما تزال على قيد الحياة؟

هل يذكر حادثة طريفة أو مؤلمة وقعت له في صباه، لها علاقة بالولد، أو بجار، أو بواحد من أتراب الطفولة؟

هل ثمة طائر في قفص كانوا يربونه في البيت، وهل كان يطعمه الحَبَّ أم فتات الخبز، وهل هو يحب الطيور أم الأقفاص؟

ماذا يتذكر عن أبواب مدينة فاس، ولماذا فاس لها أبواب، وما الذي تذكره به فكرة الأبواب التي توجد داخل الأبواب؟

هل يذكر شيئا عن تلك الأيام التي تساقط فيها الثلج على فاس فظهرت كمدينة بيضاء، فهل فاس مدينة بيضاء، ولماذا هي ليست زرقاء كما هو اسمه العائلي؟

من قبيل المزاح أن نوجه سؤالا حول علاقته في الفراش مع زوجه، وهل كان قد فلت فلتة مع امرأة أخرى، من هي، ومتى وقع ذلك، وفي أي مكان، فهذه أسئلة حميمة، تجعلنا حميمين معه، كما نحن منسجمون مع أنفسنا ومع المواطنين.

مراسلات مع الأهل والأصدقاء

ثم إنه ليس متهما في قضية سياسية، وإنما هو متهم بكونه قزم، وإذا لم تلق به هذه التهمة فهي تلتصق بمن روجوا الإشاعة حوله، وما دام عددهم كثيرا، وهم غير معروفين، فقد رأينا أن نباشر التحقيق معه، قياما بالواجب الذي يفرض علينا أن نكون مرحين، نتظاهر باللامبالاة، ندخن سجائرنا ونشرب القهوة، ونتجول في أرجاء المكاتب، ونتبادل الأحاديث فيما بيننا، فلسنا جلادين كما يقولون عنا في الجرائد وفي المنابر الحقوقية.

من الأسئلة العادية التي يلقيها الناس على بعضهم في كل مكان، ذلك السؤال الذي يتعلق بالبرامج التي تعجبه في التلفزيون، وما رأيه في أغاني أم كلثوم وما هي أقرب أغنية إلى قلبه ومن هو أعز صديق لديه، وهل له مراسلات مع أهل أو أصدقاء؟

جسد عار أمام المرآة

وما دمنا قد استأنسنا ببعضنا، وبدأنا نحكي عن كل شيء بصراحة، فهل يعجبه أن يرى جسده عاريا أمام المرآة، وكيف يراه، هل هناك علامة هي التي تأخذ باهتمامه، ما هي، ولا مجال للكذب هنا فنحن نستطيع أن يعريه، وحتى أن تضع أمامه مرآة ليرى جسده في المرآة، وفيها نرى تلك العلامة.

لن نعريه إلا لنكسوه بالريش، فنراه طائرا، لنسأله هل هو رخ أم نعامة، أم وطواط أم هو مجرد عصفور لم يتعلم التغريد بعد.

لتربية الأولاد طريقتان

سوف نتحدث عن الطريقة التي ربى بها أولاده، هل كانت عصرية أم تقليدية، هل كانت تعتمد على العصا لمن عصى فكان كان يقول للمعلم:

ـ أنت تقتل وأنا أدفن.

أم كان يمنح الحرية لأبنائه، ويصاحبهم، ويأخذهم كل مساء يوم جمعة إلى (حديقة جنان السبيل) ليمرحوا.

علينا أن نعرف أي مرب هو لأبنائه، لنعرف أهو تقلدي أم حداثي، ولنصل إلى سلسلة من الأسئلة، من بين محطاتها موقفه من حرية المرأة وحقوق الإنسان والحق في الاختلاف، وما ذلك كله إلا لكي نعرف رأيه في النظام السياسي، وهل هو ثوري يؤمن بالثورة على النظام أم أنه إصلاحي ينتقد سياسة الحكومة ويرصد أخطاءها ويسعى ذات يوم إلى أن يصبح برلمانيا أو وزيرا.

ثم علينا أن نسأله عن أحواله الصحية، وهل يعاني من مرض معين، أو من الغازات وانتفاخ البطن، أم من قصر النظر، وهل يخاف من الظلام، وهل يحب النباتات الخضراء، والطيور والحيوانات المنزلية؟ لذلك يكون على أحدنا أن يُحدثه عن (دار اللقلاق) في مراكش، وهي دار متخصصة في رعاية اللقالق ومعالجتها، وعن (مقبرة الكلاب والقطط) في طنجة، وهي تعبير عن تكريم الحيوان بعد موته بالدفن.

حينما يستأنس بنا، نسأله عن الحريات العامة، ورأيه في قمع السلطات للمظاهرات السلمية، وموقفه من التعددية الحزبية التي أغرقت المشهد

السياسي بالشعارات، ثم نسأله عن الهشاشة في المجتمع، والفقر، ومعاناة سكان البوادي من العزلة. كل أجوبته سوف تفيدنا في معرفة هويته السياسية، ونظرته إلى المجتمع والحياة.

من قبيل التعارف بيننا وبينه، وحتى يزداد ثقة بنا، واستئناسا، نسأله هل له أخت، فما اسمها، وهل علاقته معها حميمة أم أن الشقاق والنفاق قد دبا في تلك العلاقة؟ نسأله هل له أصدقاء، ومن هم، ومن منهم الخل الوفي؟ هل له علاقة عاطفية مع زوجته، فإن ذكر لنا أنه يحترمها ويعيش معها بحكم الألفة والعادة، نسأله عن المضاجعة، وهل هو قوام في الفراش، أم أنه يعاني من الضعف الجنسي؟ نخبره بأننا لا نفشي أسرار من نستقبلهم، وعليه أن يحدثنا بحرية وتلقائية. ثم نسأله عن رأيه في زنا المحارم، والنفس الأمارة بالسوء، والاغتصاب، وهل سبق له أن اغتصب فتاة أو امرأة، أم أن الفتيات والنساء اللواتي سبق أن عرفهن كن تأتين إلى فراشه بطواعية؟ ثم نسأله هل شرب خمرا، ومع من، وفي أية حانة، ومن هم روادها، ثم نسأله عن مقهاه المفضل، ونوع المشروب الذي يشربه، القهوة أم الشاي، أم كوكاكولا أم بيبسي أم هواي أم سبرايت، ولماذا يختار هذا المشروب دون ذاك؟

تفجيرات بالدار البيضاء وأخرى بمراكش

في جلسة أخرى ندخل معه إلى الجد، وفي نيتنا أن نعرف رأيه في التفجيرات الإرهابية التي عاشتها الدار البيضاء ثم عاشتها مراكش. نسأله عن الإرهاب. ما هو الإرهاب، هل هو عنف ضد الدولة ومنشآتها ورجالاتها، أم أنه تقتيل للمواطنين العزل، وما من سبب للقتل سوى اعتبارهم

كفرة؟ هل للإرهاب علاقة بالدين، أم أن لع علاقة بالسياسة؟ وما الذي يعنيه فصل الدين عن السياسة؟ أسئلة سوف نستدرج عبد الرحيم ليرد عنها أولا بأول، والنتيجة التي نرغب في الوصول إليها هي هل عبد الرحيم مع الإرهاب أم ضده، وإذا كان معه فكيف دخل مجال الإرهاب، ومن هم زعماؤه ورفاقه، وهل تعلم صنع قنابل يدوية من مواد موجودة في الأسواق؛ وإذا كان ضده فما هي الوسائل التي يراها كفيلة بمحاربة الإرهاب؟

قل يا أخي عبد الرحيم ولا تخف من شيء، فنحن قد أصبحنا أصدقاء نتبادل الأفكار. قل لنا ما الذي دعا أولئك الإرهابيين ليرسلوا انتحاريين إلى (فندق فرح)، وإلى (النادي الإسرائيلي) بالدار البيضاء، وإلى (مقهى الأركانة) في مراكش؟ وما الذي استفادوه من ضحايا هم أرباب أسر، فهل بالانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم سوف تتخلص البلاد من الكفرة والملحدين؟ أما كان أمرهم لخالقهم إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم بعد إعلان توبتهم؟

ما رأيك يا أخي عبد الرحيم في هؤلاء الشباب الأغرار الذين يرتدون اللباس الأفغاني ليجعلوا منه شعارا لهم يتعارفون به فيما بينهم؟ وما رأيك في شبان لم يتخرجوا من جامعة القرويين، ولم يتفقهوا في أمور دينهم، ومع ذلك تراهم يتبجحون بترديد أقوال لابن تيمية، تلقوها شفويا، ثم تجدهم يتطاولون على اختصاص العلماء فيفتون غيرهم في أمور الدين؟

ما رأيك يا أخي عبد الرحيم في موت الأحزاب السياسية، وظهور تيارات دينية متطرفة تستقطب الشباب وترسلهم للحرب في جبهات القتال

في دول أخرى، وهم موعودون بالجنة، إن استشهدوا، وإن كتب لهم البقاء فسوف يشهدون قيام الدولة الإسلامية، التي سوف تحكم الأرض وتبسط سيطرتها على الخلق.

ربما يكون علينا أن نريح عبد الرحيم من عناء أسئلة جافة، خالية من المرح، فنسأله عن علاقته بالموسيقى، وهل هو من المحبين لأغاني مُحَمَّد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، أم أنه يحب غناء الحاجَّة الحمداوية والماريشال قِيبُّو وقشبال وزروال، أم أنه يهوى الموسيقى الأندلسية ويشنف أسماعه بطبوعها؟

طريقة لشرب الأسئلة، كما تُشرب الفودكا

أفكر في طريقة شرب الفودكا، كما يفعل الروس، فهم يصبون في جوفهم كأسا من نار وبدرجة عالية من الكحول، ثم يصبون بعدها كأسا من مونادا بطعم البرتقال، ومعنى ذلك أن النار تبرد في الجوف، لتحمى من جديد، فتتوهج العروق، ولكي لا تحترق تماما فالمونادا تصب عليها شيئا من برد ولا سلام.

ومن هذه الطريقة استوحيت تقنية شرب الأسئلة، فبعضها يكون كجرعة الفودكا حارقا يشعل في الصدر نار الكحول، ثم تعقبها أسئلة مازحة هي كجرعة مونادا بطعم البرتقال.

لماذا تخليل سؤال بسؤال؟

تخليل هذه الأسئلة بتلك مع ابتسام لطيف قد يقرب عملنا من هدفه، فأنا أتعمد الخلط بين مواد ليست من طبيعة واحدة فلا تقبل أن تنسجم مع

بعضها، سؤال من هنا وآخر من هناك، والقصد هو الإرباك، فالمستجوب لا يجد الوقت للتفكير في الجواب، وتحضيره، وتمويهه بعبارات غامضة، مترددة، بل إنه لا يقدم جوابا حتى يجد سؤالا آخر يفاجئه، فكأن الأسئلة، وهي تمرح معه، وتلاعبه، صفعات، صفعة من هنا وأخرى تأتي من هناك، أو هي كقوة لا مرئية ترمي الجسد بين جدار وأخر، تلطمه لطما، وهي تخدير للأعصاب، كما هي تشويش على طاقة الإنسان في الكذب، وحتى وإن كان جاهلا بالجواب فهو مضطر لأن يقدم جوابا ملفقا أو كاذبا ليداري به اللحظة، وفي تلك الأجوبة يمكن أن يتبدى لنا ما يعلم وما يجعل، وما يريد أن يخفيه وما يريد أن يعلنه، وسنجد المفتاح لشخصيته، وهو الأهم.

هذا ليس تعذيبا، فتشبيه السؤال المباغت بالصفعة هو مجرد تشبيه، كما أن تشبيهه بالقذف بالجسد من جدار إلى جدار هو مجرد تشبيه، فلا نية لنا في تعذيب أحد، لكن الأسئلة مع كل هذا، تظل مثل الشِّباك، ونحن كالصيادين نرمي بها في البحر فقد نجد فيه أشياء ثمينة وقد لا نجد شيئا، ولكننا لا نخسر شيئا وعلينا أن نرمي بها من جديد.

قزم أم إرهابي أم مهرب للمخدرات، أم هو كل هؤلاء؟

عبد الرحيم الأزرق. هذا هو الاسم. الإشاعة كلها تدور حول كونه كان رجلا عادي القامة ثم تحول إلى قزم، ولا أحد يشير إلى شيء آخر، لكن كل الافتراضات ممكنة، فقد يكون على معرفة بأحد الذين تورطوا في عمل إرهابي، أو له معلومات عن العاملين في شبكة لتهريب الدولي للمخدرات. ربما يوجد في جعبته ما يساعدنا على الكشف عن بعض المخربين سواء من مزوري العملة أو من أعداء وحدتنا الترابية.

القزم ينضم إلى السيرك

هو حتما سينكر كل ذلك، لكننا سوف نضحك معه قليلا أو كثيرا، فالضحك لا يُؤَدَّى عنه، وسنأخذه ليتجول في عدة أماكن، منها السيرك الدولي للألعاب حتى نجعله يرى الأقزام ويختلط بهم ويكتشف طريقتهم في النظر إلى الناس العاديين الذين يبدون لهم من فوق، وهم يرفعون وجوههم وأعناقهم ليروهم. ستكون هذه هي طريقته أيضا في النظر إلى من هم أعلى منه، ولكن عليه أن يرى الأقزام كيف ينظرون إلى من هم أعلى منهم، ليعرف أنه قزم، هذا إذا ووجدانا وكان قزما بالفعل، وفي هذه الحالة سوف نقترح عليه أن ينضم إلى السيرك، ليتدرب على عمل الأقزام، ويندمج مع أقزام آخرين من كل دول العالم، وبهذه الطريقة سنرتاح منه وسوف تنتهي المشكلة، ولكن بشكل سري، لكي لا تنشغل الجرائد بنا فتكتب مقالات مثيرة للرأي العام، تتهمنا فيها بأننا نبيع اللحم الحي للغرب، بعناه البارحة كيد عاملة واليوم نبيعه كأقزام.

ماذا سوف يحدث إذا وجدناه وكان رجلا في قامته العادية، فمدنا ببعض المعلومات عن الإرهابيين ومهربي المخدرات وأصحاب مقاولات الهجرة السرية؟ أليس علينا أن نوظفه معنا وأن نبقي على الإشاعة، بل أن نذكي فيها نار الذيوع، حتى يتكلم الناس بما لم يستطيعوا أن يقولوه في مقرات الأحزاب والنقابات والتجمعات العمومية فنعرف ما يقولون؟

المدافع عن حقوق الإنسان، عبد الرحيم الأزرق

هذا زمان النفاق، حيث لم يعد بالإمكان أن تجد إنسانا بوجه واحد، وعلى صورة واحدة، يقول ما يفعل، ويفعل ما يقول. غريب أمر الناس في

هذا البلد، ومن أوجه الغرابة أن تجد حقوقيين يضربون زوجاتهم، ويكوون أبناءهم بالنار ويعاملون أمهاتهم بالشتم والتحقير، وأما الخادمات وما يفعلون بهن فتلك مصيبة عظمى،وزوجاتهم وأمهاتهم وأبناؤهم وخادماتهم لا يشتكون بهم إلى منظماتهم، فكيف يكون المشتكى بهم هم المشتكى إليهم، كما تجد محامين يبيعون ويشترون في حقوق الناس، وأطباء يتاجرون بأمراض مرضاهم، فما أشبع أن يوجد أناس يتكالبون على المال بشتى الطرق، وهم يسيرون على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة".

أعجبت هذه المقدمة رئيسي عندما اطلع عليها ورآها تصلح لاستدراج عبد الرحيم الأزرق، إن نحن وجدناه، نحو تشخيص مشاكل الناس مع المحامين والأطباء، وما يعتريها من توتر يجعل المحامي والطبيب سيء السمعة لدى المتقاضين والمرضى، وإن كان لابد منهما، فلو التقيت بعبد الرحيم لسألته عن المبالغ التي يطلبها الأطباء لإجراء العمليات، من تحت الطاولة، وعن الثراء الفاحش الذي يحققه بعض المحامين، أو أغلبهم، من صفقات يرشون فيها القضاة ويزورون محاضر الشرطة والدرك. مع أجوبته سوف يبدو مدافعا عن حقوق الإنسان، وما في ذلك من مشكلة عندنا نحن رجال الأمن، فما يضر بنا هو الإضرابات التي تعلنها بعض النقابات، ففيها نخرج للشوارع لتحقيق الأمن، ومنع المخربين من كسر واجهات المتاجر وإحراق السيارات والحافلات، وإن كان هناك من يسند مثل الأمور إلينا ويرى أننا نرسل من يقومون بها حتى نُحمل المسئولية للنقابات.

وصل الخبر إلى بيتي، فسألتني زوجتي:

ـ هل حقا تحول عبد الرحيم الأزرق إلى قزم؟

سألتها:

ـ هل وصلتك الإشاعة؟

قالت:

ـ وصلت للحي بأسره.

قلت لها:

ـ هي مجرد إشاعة، ونحن نحقق فيها لنعرف الصدق من الكذب.

ثم سألتها:

ـ.كيف وصلك خبر عبد الرحيم؟

قالت:

ـ الجارات. إحداهن تقول إنه مدافع عن حقوق الإنسان، وأنتم روجتم الإشاعة عنه، حتى تصرفوا الأنظار عن نضاله الحقوقي.

قلت لها:

ـ ما أعرفه هو أن عبد الرحيم الأزرق ممرض في مستشفى الأمراض العقلية.

قالت:

ـ بل يقال إنه من نزلاء ذلك المستشفى، وأنتم من أدخلتموه إلى ذلك المستشفى، رغم أنه لا يعاني من أي خلل عقلي.

قلت لها:

. أنتِ زوجتي، فهل أنتِ معنا نحن حماة الأمن في هذا البلد أم مع من يطلقون الإشاعات؟

قالت:

. لا يمكنني أن أكون إلا مع الحقيقة. متى تظهر أعرف مع من سوف أكون.

البحث جار عن عبد الرحيم الأزرق

الوضع يتطور، وهو يستدعي النظر في مسألة عبد الرحيم الأزرق بكثير من الجد. فإذا كان كما قيل ممرضا في مستشفى الأمراض العقلية، فملفه الإداري، وهو متضمن لصورته، سوف يوجد هناك، وستوجد مع الملف تفاصيل أخرى عن سنه وسنة ولوجه للعمل في المستشفى، واسم زوجته وأسماء أبنائه وعددهم، والأهم من هذا كله هو أن نعرف رقم بطاقته الوطنية، لنعرف هل له سوابق عدلية. سوف نستجوب الطبيب المسئول عن المصحة، المسيو جاكار، والممرضين الآخرين، وبعض النزلاء.

لهذا الغرض سأنتقل إلى المصحة بنفسي، لكني سأبدأ من حارس للسيارات يقف قبالة المصحة، وعينه طوال النهار على من يدخلون المستشفى ومن يخرجون منه، وهو من سيخبرني عن عبد الرحيم الأزرق، شكله، لباسه، تأخره في المجيء إلى العمل أو انضباطه للوقت، وهل يكون حاملا شيئا في يده في أوقات الدخول أو المغادرة، فإن أخبر بأن عبد الرحيم يحمل شيئا في يده وقت الدخول فنعنى ذلك أنه يُدخل للنزلاء السجائر والمخدرات وأقراص الهلوسة، وإن كان يخرج من المستشفى وهو يحمل شيئا

في يده فقد ذلك الشيء مسروقا من النزلاء.

سأعرف كيف ألتقي بشابة جاءوا بها للعمل في المستشفى كمنظفة، ولاشك أنها تنظف المكاتب الإدارية، كما أنها في خدمة المسيو جاكار، وستخبرني بكل ما تعرفه عن عبد الرحيم الأزرق، وسأسألها عن علاقته بزملائه الممرضين، وعلاقته بالنزلاء، وعلاقته بنفسه، وهل يتلقى مكالمات هاتفية في المستشفى، وممن، وهل سبق لها أن رأته يتخاصم مع أحد، أو يحضر إلى عمله والكدمات الزرقاء حول عينيه، وهل سبق له أن باح لها بسر من الأسرار، وهل تغزل فيها في يوم من الأيام، أو حاول أن يغتصبها عندما دخلت المرحاض فلحق بها ودفع الباب ثم هَمَّ بها، وهل سبق له، حسب علمها، أن انتحل الشخصية وادعى أنه مناضل حقوقي أو شيء من هذا القبيل، وما هي علاقته بالدكتور جاكار، فهل هما على وفاق أم أن الخصومة تقع بينهما، وما هي أسباب تلك الخصومة إن وجدت، ثم أختم أسئلتي بسؤال عن آخر مرة رأته فيها، وهل كان قزما أم رجلا عاديا كباقي عباد الله.

مفاجأة عليَّ أن أتوقعها، وهي أن أجد عبد الرحيم الأزرق في المستشفى وهو يزاول عمله بصورة عادية، وعندما ألتقي به أنظر إليه فأراه رجلا عاديا، وسوف يُحرجني ذلك، لأنني لا أستطيع أن أبرر له سبب زيارتي للمستشفى.

احتمال آخر، هو ألا أجده، وفي هذه الحالة، يتعين عليَّ أن أرسل العيون للشوارع والحانات والمقاهي وحتى المساجد والمقابر، بحثا عنه.

إذا لم يوجد في المستشفى، أو في داره، فأين يمكن أن يوجد؟ لن يختفي عن أنظارنا مهما ظل مختبئا، فحتى ولو حفر لنفسه قبرا تحت الأرض، فسوف نجعله يصعد من قبره لنرى أهو قزم أم رجل عادي.

علينا أن ننظر في دفاتر الحالة المدنية، لنعرف هل اسم عبد الرحيم الأزرق ينطبق على شخص واحد أم على عدة أشخاص، وإن كان ينطبق على عدة أشخاص فعلينا أن نُحضرهم جميعا لنرى من هو القزم منهم، وإن لم يوجد، فستكون جهودنا ضائعة، لأن عبد الرحيم الأزرق آخر، هو القزم، وربما هو غير مسجل في الحالة المدنية، لذلك قد يكون ولد وهو قزم، ولم يقع تقزيمه من قبل أحد وهو في مرحلة متقدمة من عمره، وقد أصبح أبا وجدا.

بدون ماض، لا يمكن أن نفهم الحاضر

علينا أن نتذكر، فهذا هو شغلنا، وإن لم نتذكر فسوف يضيع منا كل شيء في الحاضر. ذاكرتنا تعج بالكثير من اللحظات التي توترت فيها العلاقة بين السلطة والمعارضة، ومع غضب الملك على المعارضين واليساريين فقد قمنا بحملة اعتقالات في صفوفهم، ومما يشاع عن عبد الرحيم الأزرق أنه كان رفيقا لمناضلين اعتقلناهم، بينما هو أفلت من الاعتقال بعد أن هرب إلى فرنسا وطلب اللجوء السياسي فأصبح من موقعه هناك ينتقد النظام

لكننا رغم استحضار هذه الذاكرة نعيش أحداثا يومية تغرقنا في الجري بين الشوارع والبيوت والإدارات العمومية للوصول إلى الحقيقة، أو إلى حقيقة ممكنة تتجاوب مع واقع بلادنا هي التي نكتب حولها التقارير. نحن

أناس لهم عقول كبيرة، تنظر إلى الحاضر وإلى الماضي، فلدينا في الملفات والمحاضر ما يشير إلى وقائع حدثت في الماضي ولكنها تستطيع أن تفسر لنا وقائع أخرى تقع اليوم، ومن ذلك ما يشاع عن القزم عبد الرحيم الأزرق، الذي يقال إنه لم يكن قزما ولكنه فجأة أصبح قزما وكأنهم يحملون الدولة مسؤولية الحفاظ على قامات المواطنين.

وقائع وأحداث سياسية مشهودة عرفتها البلاد، وأحداث أخرى لها عجائب وغرائب، قد لا يصدقها العقل ولكنها تحضر في ذاكرة الناس، وفي عدة مدن، ونحن وإن لم ندخل في ذاكرة الناس، ولم نستعمل حاسة الشم، فإننا نتوفر على دقة الملاحظة والانتباه لأشياء لا ينتبه إليها الآخرون، وإلا فلن نفعل شيئا، ولن نصل إلى شيء، ولذلك فنحن نقلب الموضوع على أكثر من جانب، ونعطيه أكثر من معنى، ونحتمل أكثر من احتمال، فبذلك كله يعمل الواحد منا وهو يُشغل ذكاءه، مفترضا أن الآخر له ذكاؤه أيضا.

نستحضر أحداث الماضي ونقارن حادثة بأخرى، ونستفيد من أشياء كانت قد وقعت حتى ولو في مكان آخر وفي ظروف أخرى.

شجرة تنزف دما

هناك إشاعة كانت قد انتشرت بين المواطنين في مدينة الرباط، وهي تتعلق بشجرة قالوا إنها تنزف دما، بالليل والنهار، ونظرا لموقع تلك الشجرة في قلب شارع رئيس بالرباط، ولأنها توجد في الرصيف الذي يوجد عليه موقف للحافلات، فقد انتشرت الإشاعات، ووُجد من سكان الرباط عدد كثير ممن يؤكدون أنهم قد رأوا بأعينهم الشجرة وهي تنزف، وأن ما تنزف

كان دما. خشي بعض من قابلتهم من سكان الرباط أن يمتد النزيف من الشجرة إلى أن يسيل الدم في كل شوارع الرباط، وذلك لا قدر الله، لن يكون فألا حسنا، كما أن سيارات البلدية التي تغسل الشوارع لن تتمكن من دفع ذلك الدم كله إلى المجاري، ولذلك سوف يحلم الناس بالدم، وسيعانون من الكوابيس.

انقسم الناس كالعادة، فغالبيتهم تبركوا بالشجرة واعتبروها مزارا لولي مجهول من أولياء الله، أطلقوا عليه "صاحب الشجرة"، وأنه ما أجرى دم تلك الشجرة إلا لينبه الغافلين إلى أخطائهم حتى يرجعوا إلى طريق الصواب، وما دامت الشجرة قد وجدت في مدينة الرباط عاصمة المملكة فأول الغافلين هم أولى الأمر؛ والأقلية من الناس طالبوا باجتثاث الشجرة من الجذور لأنها تشيع البدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة. من الناس من جاءوا بكاميرات الفيديو لتصوير الجموع المحيطة بالشجرة، ولما قررت إدارة النقل الحضري أن تتخلى عن تلك المحطة للوقوف بسبب كثرة الازدحام، فما كان أحد من حملة الكاميرات يستطيع أن يصور نزيف الشجرة. ومن الصحفيين من وجدوا ما يملئون به صفحات جرائدهم فزادوا في نشر الشائعات التي تضاربت حولها الآراء، واسترزقوا الله من حوارات مع المواطنين الذين كانوا يتجمعون في المكان.

الغريب أن أي واحد من هؤلاء وأولئك لم يكلف نفسه عناء النظر إلى الشجرة وفحصها لمعرفة مصدر ذلك الدم، وهو ما قمنا به فوجدنا أحدهم قد صنع فجوة في الشجرة، ومنها أدخل علبة صباغة حمراء، وضعها في وضع يجعلها تقطر قطرات والقطرات تتسرب إلى خارج الشجرة ثم تسيل مع الطريق.

ما جعلني أتذكر هذه الإشاعة، هو الإشاعة التي راجت حول عبد الرحيم الأزرق، الذي قيل عنه إنه جمع لا مفرد، فالكثيرون يحملون هذا الاسم، وأحدهم هو القزم.

بحر من دم

شائعة أخرى استحضرتها، فقد أشيع عن بحر مدينة المحمدية أنه أصبح ذات صباح وأمواجه حمراء تتدافع نحو الرمل، وهم أمر أرعب سكان المدينة، فهرعت القنوات التلفزيونية لتصوير هذه الظاهرة العجيبة، جعلت من ذلك البحر بحرا من دم. عندما ذهبت إلى هناك وجدت من قالوا إن أبا قد اغتصب ابنته، فحملت منه، ومن غضب الله أن جعل ماء البحر من دم. كما وجدت من قالوا إن ساحرة قد ظهرت بالمدينة، وأرادت أن تثبت للسكان قدراتها في السحر فحولت ماء البحر إلى دم. وقد قيل لي إن إسرائيل هي التي تقف من وراء ذلك، لتُظهر قوتها وعظمتها حتى على أمواج المحيط الأطلسي.

حينما حققنا في الأمر وجدنا أن طحالب حمراء قد أتت بها الأمواج، وأن الإشاعة هي التي جعلت البحر بحرا من دم.

مواطن له رأسان بأربعة عيون وثلاثة أنوف

ثم داهمتنا إشاعة أخرى عن مواطن ظهر أمام الناس، فجأة، له رأسان بأربعة عيون وثلاثة أنوف وفمين ولسانين. أشيع عن ذلك المواطن أنه ينظر بعيونه الأربعة إلى عدة جهات، وأنه بفميه يأكل دفعة واحدة، وبلسانيه يتكلم في ذات الآن بلغتين مختلفتين. عندما حققنا في الإشاعة وجدنا أن

هناك من يقول إن هذا المخلوق العجيب الغريب يبحث له عن أنثى تكون في مثل خلقته واستعداداته حتى يتزوجها، وساعتها سوف ينجبان خلقا يبدو عجيبا بالنسبة لغيرهم لكنه يبدو عاديا بالنسبة لهم. وهناك من قال إنه مخلوق جاء من كوكب آخر ليعيش فوق الأرض، وممن احتاطوا للأمر حسبوه جاسوسا جاء من كوكب ليتجسس على البشر فوق الأرض. أحدهم قال إنه وقد وقع في الأسر فمبادلته مع رائد فضاء نزل على كوكب زحل ثم وقع في الأسر ممكنة الآن. وأحدهم قال إن مخلوقا كهذا يجب قتله، لأنه مشوه، ولا يستجيب للخلق الإلهي للبشر، ولعلها أمه قد حملت به وحش من الوحوش، خلافا لما تحمله المرأة من رجل مثلها.

تكاثرت الأسئلة، وتكاثرت الآراء. لكن بحثنا عن ذلك المخلوق لم يصل إليه، لدحض الشائعة، فقررنا إغلاق الملف، ومع مرور أيام قليلة نسي الناس ذلك الخلق العجيب، صاحب الرأسين وأربعة عيون وثلاثة أنوف.

صاحب اليد الطويلة

إشاعة أخرى انتشرت عن مواطن له يد طويلة وطويلة جدا، يجلس للسهر مع زوجته وأولاده وبناته في بيته، وعندما يشاهدون برنامجا عن مهرجان الأكل في (ساحة جامع الفنا) في مراكش، ويشعر بريق أولاده وهو يتحلب، يمد يده، ثم يُخرجها من النافذة، ويمدها لتصل إلى مراكش، وإلى الساحة بالذات، فتحمل صحونا كثيرة بها شواء، ولحوم وأسماك ثم تعود بها من حيث أتت، إلى أن تدخل النافذة وتعود بما أتت به من طعام فتضعه على النافذة.

يده تقرص أذن وزير، أو تداعب خد مذيع في التلفزيون وكأنها تهم بصفع الخد ولكنها لا تفعل.

هناك من قال لنا إن اليد تمتد وتطول، وتطول جدا، إلى أن تصل إلى أدراج المكاتب، والملفات السرية، وهي تشاغب رئيس دولة أعشى لا يرى إلا من خلال النظارة الطبية فتمتد وتنزع النظارة عن عينيه وهو يلقي خطابا، فيرتبك أمام رؤساء الدول، ويقول:

. من أخذ مني نظارتي؟

اعتبر الأمر تآمرا عليه من قبل السي آي إي وال إيف بي آي، ويعتذر عن إلقاء كلمته أمام الأمم المتحدة.

هكذا قالوا. وقالوا إن شائعة أخرى قد انتشرت عن رجل ظريف، ضحوك، لكنه لا يظهر في الطرقات والأسواق إلا وهو يرتدي البياض. أشيع عنه إنه بارتدائه لذلك البياض قد عاد من عالم الموتى، وأنه مبعوث في الحياة الدنيا قبل البعث، ولذلك فهو بتلطفه مع الناس وابتسامه لهم، يدعوهم إلى المحبة والصلاح وخدمة الناس والتقرب من الله، وقيل إنه قد دخل (درب الروم) وهو يرتدي الخرقة الصوفية، فحاول أن يُسمع كلامه إلى شبان الحي، لكنهم اعتدوا عليه بالضرب فسقط صريعا، وعندما نهض من صرعه أطلق ساقيه للجري إلى أن خرج من باب من أبواب فاس هو (باب الخوخة)، فما كان من أهل الحي إلا أن أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية، وهناك التقيت به، وعندما سألته عما به قال لي:

مجذوب

ولست مجنونا

لكن الأحوال دارت بي.

ثم ما هي مهمتنا نحن في الاستعلامات، أهي أن نبقى خاملين في مكاتبنا نتفرج على ما يحدث في مجتمع يعرف الكثير من الغليان الذي لا يراه أحد، أم نخرج إلى الشوارع لنتابع الصغيرة والكبيرة وأحوال الناس وسخطهم على الأوضاع وغضبهم منن المخزن؟

الباب الثاني

[فيه يسرد مقدم برنامج تلفزيوني، اسمه عباس المرادي تفاصيل إجراء مقابلة مصورة مع عبد الرحيم الأزرق، ولكن خانه المصور الذي تأخر في المرحاض].

موجز الخبر، موضوع التغطية الإعلامية:

تقول بعض الأنباء الواردة من مدينة فاس أن رجلا عاديا قد تحول إلى قزم. والإشاعة، كما علمنا، انطلقت من مدينة فاس ثم انتشرت في كل المدن المغربية. القناة بدورها، سوف تقوم بتحقيق حول الموضوع، ثم نوافي النظارة الكرام بالتفاصيل.

التحقيق:

. استجواب المواطنين حول هذه الظاهرة.

. محاولة إجراء مقابلة مع عبد الرحيم الأزرق، سواء أكان قزما أو رجلا عاديا.

الوسائل:

.كاميرا ومصور.

الأماكن:

. زيارة لفاس وخاصة للأماكن التي يعيش فيها عبد الرحيم الأزرق:

. حي الأطلس.

. مستشفى سيدي بوجيدة للأمراض العقلية.

الهدف من التحقيق:

. تفنيد الشائعة، وإثبات أنها نتيجة أفكار خرافية.

مدة الإنجاز:

. ثلاثة أيام.

تقرير حول حصيلة اللقاءات مع المواطنين، وهو يقوم على مبدأين:

ـ نسبية الحقيقة.

ـ البقاء للأصلح.

كما أنه يشمل انطباعات و خواطر، عن مادة التحقيق، فشعار القناة: "الحقيقة. ولا شيء غير الحقيقة".

من تلك الانطباعات والخواطر غير المكتوبة، أنني أجد الحقيقة تختلف من إنسان للآخر، وكل واحد منا يرى فيما يراه حقيقة هي ما يحاول أن يفرضه على الآخرين، فإن لم يتقبلوه منه فهو يفقد أعصابه، وتحمر عيناه، وتخرج الكلمات من فمه كالقنابل، ويرمي غيره بالجهل، ناسيا أو متناسيا أن فوق كل ذي علم عليم، وأن فوق كل عارف من هو أعرف منه. أما نسبية الحقيقة فتجعل من يؤمن بها إنسانا منفتحا على أفكار الآخرين، حتى وإن كانت تتعارض مع أفكاره.

من استجوبناهم تعارضت أفكارهم ومواقفهم من مسألة تحول عبد الرحيم الأزرق من رجل عادي إلى قزم. واستطلاع الرأي الذي قمنا به، أكد أن من حاورناهم يروون قصصا غريبة، قد لا تكون ذات صلت بموضوع الاستطلاع، فقد كانوا يُنفسون عن المكبوت، ويشعرون بالزهو وهم يقفون أمام الكاميرا. كثيرة هي المقابلات التي أصابتنا بالإحباط، وهي تعطل مسار التحقيق الذي نقوم به. واجهنا أناسا يصرخون ويبكون ويمزقون ثيابهم وآخرين تعتريهم حالات من العنف فيبدون كالقتلة، كما واجهنا أناسا تحدثوا عن ذواتهم ولم يحدثونا عن شائعة عبد الرحيم الأزرق. الأشرطة في أغلبها لا

تصل بنا إلى تحقيق الهدف من التحقيق، وهو دحض الإشاعة، ومع ذلك فقد فضلنا الاحتفاظ بها كما هي، لأنها تعبر عن المعاناة النفسية والاجتماعية للمواطنين. ومادام منهم من طرح قضايا تتعلق بانتشار البطالة وفساد التعليم الرسمي للدولة وانهيار القيم في المجتمع وتصاعد الأحداث التي يقوم بها الإرهابيون، فقد رأينا في القناة أن نحتفظ بها لتغطية إعلامية أخرى وضعنا لها عنوانا هو: "مغرب اليوم إلى أين يسير؟". ورأينا أن ندعو مختصين في علم الاجتماع وتحليل ما جاء في أقوال المواطنين.

آراء المواطنين

أحدهم قال إن هذه الإشاعة أمر غير معقول، ولا يصدقه سوى ذوي العقول الضعيفة.

آخر قال إن الله قادر على كل شيء، فإن شاء فعل، وفعله يجب أن يكون مقبولا حتى وإن كان فيه عقاب لعبد من عباده، كالذي وقع لعبد الرحيم الأزرق، والله هو الفاعل المختار.

وأحدهم رأى أن بعض الجهات الرسمية هي التي تبث مثل هذه الإشاعات لتشغل بها الناس عن المطالبة بحقوقهم في الشغل والتمريض والأمن.

وآخر سخر ويقول:

ـ كلنا أقزام، كلنا على هذه الحالة، أقزام.

وآخر رفض إبداء الرأي.

وآخر لم يصدق ولم يكذب، ثم قال:

. ربما يكون عمل ساحر من وراء ذلك. لا يُفلح الساحر من حيث أتى.

امرأة اقتحمت المجال الذي تتحرك فيه الكاميرا وقالت:

. أنا معلمة.

اقتربنا منها وسألناها عن إشاعة الرجل الذي تحول إلى قزم فألقت علينا محاضرة في الوطن والمواطنة وحب الوطن والتضحية من أجل الوطن. طلبنا منها إبداء رأيها في الرجل الذي يشاع إنه قد تحول إلى قزم، فقالت:

. أنا أرفع آيات الولاء والإخلاص إلى جلالة الملك.

وعندما ألححنا عليها في السؤال عن عبد الرحيم الأزرق قالت:

. أنا قلت ما عندي.

اقترب شاب من الكاميرا كالمقتحم، وقال:

. ما العيب في أن يولد الإنسان قزما، فينشأ ويترعرع وهو على هذه الحال؟ الإنسان في هذه الحالة يعاني نوعا من الإعاقة، وعلى الدولة أن تتكفل به.

أخبرناه بأن عبد الرحيم الأزرق موضوع الإشاعة لم يولد قزما، فلم يقدم لنا أي بيان.

قال لنا رجل عجوز هذا آخر الزمان، يقع فيه كل شيء، وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان، وأن ترى الأمة تلد ربتها.

وهاكم المثال، فرجل من بني تغلب سأله الإمام علي كرم الله وجهه:

. لماذا تؤثرون معاوية؟

فقال التغلبي:

. ما آثرناه ولكننا آثرنا التمر والقمح والزيت على نبقى جياعا.

طلبنا منه أن يفسر كلامه فقال:

. الناس الجهلاء مع من يدفع لهم، وأما الناس العارفون فمع من ليس له ما يدفع لهم.

قلنا له:

. أوضح.

فقال:

. تفسير الواضحات من المفضحات.

اقتربنا من امرأة، ولما سألناها سؤالنا المعروف عن عبد الرحيم الأزرق وهل تحول إلى قزم نظرت نحو الكاميرا وابتسمت، ثم قالت:

. شكرا للقناة. قبل أن أجيب عن السؤال أنا أرسل السلام والتحية إلى عزيز وفوزية ونهاد بالقصر الكبير وإلى كل الأعزاء بقصبة تادلة وإلى أخي عزيز في ورزازات وأختي راضية في العيون.

قلنا لها:

. هذا البرنامج ليس لإرسال التحية للأهل والأحباب، وإهدائهم بعض

الأغاني، وأنتِ لم تردي على سؤالنا.

قالت وهي تنسحب من أمام الكاميرا:

ـ في المرة القادمة، إن التقيت بكم، فسوف أجيب عن سؤالكم. مرة أخرى أبعث بالتحية إلى زهور ونادية وإلى عمتي لالة زينب وإلى قوت القلوب ونزهة وإلى رجاء وحميد وعزيز.

اقتربنا من شابة أخرى. طرحنا عليه السؤال. قالت:

ـ أقدم لكم نفسي. أنا طالبة بكلية العلوم. في رأيي لا بد أن نبدأ من التعريف.

سألناها:

ـ تعريف ماذا؟

ارتبكت وقالت:

ـ تعريف من هم الأقزام.

قلنا لها:

ـ يا آنسة، نحن لا نجري تحقيقا حول الأقزام، وإنما حول إشاعة تتعلق بعبد الرحيم الأزرق، الذي تحول من رجل عادي إلى قزم.

قالت:

ـ أنا لا أخاف الإشاعات. أشاعوا عني أنني فقدت بكارتي في ليلة قضيتها مع شاب يدرس معي. الإشاعة وصلت إلى خطيبي. لم أسمح له أن

يتأكد هل أنا بكر أم ثيب، وفسخنا الخطوبة.

سألناها:

ـ والإشاعة التي تروج حول عبد الرحيم الأزرق؟

قالت:

ـ الأقزام كما هو معروف عند جميع الناس هم قوم قصار القامة، يتميزون بالذكاء الخارق، والقوة الجسدية، ونحن البشر العاديون ننظر إليهم بنظرة سوء علينا أن نغيرها، وأن نحترمهم، وأن نوفر لهم الشغل بقدر مستطاعهم.

رجل كهل قال لنا:

"الأقزام لا يوجدون إلا بين الرجال، فمن النادر أن تجد امرأة قزمة. ومع ذلك فقد وجدت نساء قصيرات، ولقصر قاماتهن فقد واعتبرن ماكرات، حتى قيل إن كل قصيرة مكيرة، وهناك من اعتبر النساء القصيرات قويات الهمة في الفراش، أما المرأة القزمة، كخلقة ربانية فلم توجد إلا في القليل. بينما وجد رجال يقزمون النساء احتقارا لهن وتمهيدا لهضم حقوقهن في الميراث وغيره.".

ضحكت امرأة عجوز وقالت:

ـ يا ولدي الأقزام موجودون في الحكايات. هل تحب أن أحكي لك واحدة من تلك الحكايات؟ يقال مسخهم الله بعد أن كانوا أناسا عاديين. في إحدى الحكايات تجدهم يحلمون بأحلام غريبة. هل أقص عليك واحدة من

تلك الأحلام؟".

سألنا رجلا عن عبد الرحيم الأزرق فقال:

. اسمع يا أخي. هذا الاسم سمعت به، ويمكن هو رئيس بلدية فاس.

ثم سألنا شابة نفس السؤال، فقالت:

. عرفاه. أنا متأكدة من الجواب. لو كنت في برنامج من سيربح المليون لأعطيت الجواب الصحيح.

قلنا لها:

. من هو؟

قالت:

. سوبير ستار.

وقالت امرأة ترتدي جلبابا وفي يدها باقة من النعناع:

. هو، هو هداك من يبحث عنه البوليس. قتل سبعة رجال واغتصب سبع أبكار واختطف سبعة أطفال ثم باع كليهم.

وقال لنا حارس سيارات كان يشم من حين لآخر من كرة السلسيون وقد احمرت عيناه وبدا محششا:

. يا أخي هذا البلد يعاني من مشاكل كبيرة سببها الأقزام. وأقول لك، عبد الرحيم هذا الذي تسألون عنه، إن هو إلا رجل مقهور مثلي، نظر ذات يوم فلم يجد الأرض تحت قدميه. وجد نفسه واقفا في الفراغ.

وأجابنا رئيس البلدية عن السؤال نفسه، المتعلق بتحول عبد الرحيم الأزرق من رجل عادي إلى قزم:

. عبد الرحيم الأزرق اسم موجود عندنا في فاس، عائلات كثيرة تحمل أسماء الألوان، عندنا عائلة الأحمر، والأبيض، واسم الأزرق يندرج في هذا المجال.

سألناه:

. هل سمعت بالإشاعة؟

أجاب بالنفي، واعتبر زيارتنا لمكتبه مناسبة للحديث عن الإنجازات والمشاريع، فوقف أمام لوحة كبيرة عليها عدة خانات، وكانت تغطي جدارا وأخذ قضيبا معدنيا وتنحنح وابتسم، ثم أخذ يشرح لنا الإنجازات التي قام بها المجلس البلدي والمشاريع التي ينتظر أن يقوم بها.

قال لنا معلم فران كان يُخرج الخبز من الفرن:

. هذا الأزرق سمعت به، كان وزيرا في عهد السلطان الأكحل، ويمكن بعثه الله ليرى ما يحدث في هذا الزمان من مصائب.

وبدل أن يجيبنا أحد الشبان فضل أن يسأل:

"إذا كان عبد الرحيم الأزرق قد تحول بالفعل من رجل عادي إلى قزم، فكيف يمكنه أن يواجه وضعه الجديد، هل ستصبح له مواهب جديدة في فن العيش، وهل سوف لن يشعر بأية عقدة ضعف تجاه الناس الطوال، العمالقة الذين هم ليسوا عمالقة ولكن يبدون له كذلك؟".

قال لنا شاب:

" مسكين عبد الرحيم الأزرق له قلب ونظر، فمن ستقبل الزواج منه إلا إذا كانت قزمة مثله فيوافق شن طبقة ؟ أنا شن أبحث طبقة توافقني فلم أجدها. هل عندكم طبقة لشن الذي هو أنا؟ أخبروها بأنني حَقٌّ طاح ويبحث عن غطائه".

ضياع في فاس، وخطة غير معلنة للقاء بعبد الرحيم الأزرق

صورنا هذه الحوارات في إطار استطلاع الرأي مع المواطنين، في الشارع، وفي ساحة عمومية، ومع رئيس البلدية في مكتبه، وفي بعض الأحياء الشعبية.

ولأننا كباقي عباد الله نتعب، ونحتاج إلى النوم والراحة، أنا والمصور، فقد تعشينا وقبل أن ننام في نفس الغرفة في الفندق أخبرته بأن لدي خطة للقاء بعبد الرحيم الأزرق، الحقيقي، أي ذلك الممرض في المصحة العقلية، لنصور معه مقابلة مباشرة نسأله خلالها عن الحقيقة وعن الشائعة، ولنرى هل سنجد رجلا عاديا أمامنا وهو من تدور الشائعات حوله، أم سنجد قزما فنسأله هل كان قزما منذ ولادته، ولماذا تصور الناس أنه كان في قامته العادية ثم أصبح قزما، ما هي دلالة... يعني... هل في ذلك ما يفيد أن ... وإلى أي حد يمكن أن ... وعلى اعتبار أن المسألة فيها غموض نسبي ... ثم ما هو الحد الفاصل بين الحقيقة والشائعة؟ يعني هل هو حقيقة أم شائعة، وكيف يراه الناس ويتعاملون معه بعد أن أصبح قزما، وهل يجد صعوبات في ممارسة عمله وهو يعالج المرضى، علما بأنهم نزلاء في مستشفى الأمراض العقلية، وهل هو نزيل في نفس المستشفى؟

الحقيقة أنني لم أنم، فقد بت ليلتي كقط على صفيح ساخن. أقول لنفسي ويعني... وإذا كان... فمن البؤس والعار أن نجد مواطنا... ولأن حقوق وواجبات المواطنة تقتضي... فالأمر يتطلب... وعلى سبيل الدهشة التي تحملها لحظة اكتشاف وضع غير عادي في الواقع، استثنائي، قد يعد من قبيل الخيال، فإن ... وهل هو مخاض جديد لولادة وطن بدون أقزام، وكيف، وما الذي يراه المواطنون أنفسهم حول هذه المسألة، وهل القزمية، أو التقزيم، هما حالة رمزية أم واقعية، فإلى أي حد تكون للشائعة اعتباراتها المنطقية، والتاريخية، والجيوسياسية، سواء في المغرب العربي أو في دول أوربا وآسيا وأمريكا، وهل القزم، هو من قزمته ظروف الحياة، أم أن قدرا عصف به فحوله إلى قزم؟

طرد مسبق لصاحب البرنامج التلفزيوني من القناة

ألقوا بي إلى الشارع، أنا وأوراقي وأسئلتي الحائرة، ومعي المصور والكاميرا، فقد تخلوا عنا جميعا. ومع ذلك، وفي إطار حب البقاء، وحب الحفاظ على الرزق، فقد فكرت في بيع مادة ما سأنجزه لقناة أخرى، ولذلك حرصت على مواصلة العمل. أخوكم عليه ديون كثيرة، منها ما يرجع إلى سلف أخذته من البنك، ومنها ما يرجع إلى ضعف الراتب، ومنها ما يرجع إلى إدماني على لعب القمار، لذلك لا يوجد أي درهم في جيبي. كلما دخل الدرهم جيبي يخرج منه. مع طردي من العمل في القناة زادت حالتي سوءا، وأخذت أعول على المصور في تصريف الأزمة، فهو إنسان طيب، في غاية الكرم، وقد وجد ما يتكرم به بعد أن ورث من أبيه أرضا واسعة كانت مزروعة بالقمح ثم عندما دخلت المجال الحضري باعها بمال قارون.

قررنا الاستمرار في هذا العمل الإعلامي الذي يخدم الحقيقة. فالحقيقة أولا، ولاشيء غير الحقيقة.

المصور في المرحاض

لم أخبر المصور بأني قد تلقيت مكالمة من إدارة القناة تخبرني بالتوقيف عن العمل، وأن لا حاجة إلى إجراء التحقيق، فلو أخبرته لتساءل هل هو أيضا معني بالتوقيف، ولكف عن العمل معي، بينما أنا أرغب في إنجاز التحقيق حتى في هذه الظروف.

لكن المصور هو والكاميرا باتا ولم يصبحا معي في الغرفة، فلما فتحت عيني اتجهت بنظري نحو سريره فلم أجده، والكاميرا لم تعد في مكانها. كلمته بالهاتف المحمول فرد علي وقال:

ـ أنا في المرحاض.

حسبته في مرحاض الفندق، ولما سألته:

ـ أين الكاميرا؟

قال:

ـ هي معي.

سألته:

ـ لماذا أخذتها معك إلى المرحاض؟

قال:

ـ أنت مريض بالأسئلة، لا تفعل شيئا في حياتك سوى أنك تسأل، حتى والذي تسأله يوجد في المرحاض.

قطع الخط.

كيف يمكن أن تنجح خطتي لتصوير حوار مع عبد الرحيم الأزرق، وبكل الاحتمالات والتوقعات، وبكل ما هو منتظر، ليراه الناس على شاشتهم الصغيرة في هذه القناة أو تلك، وليقول لهم بنفسه الحقيقة، ورأيه في الشائعة؟

ولكن كيف أذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية في الوقت والساعة، بدون مصور وكاميرا؟

أذهب أو لا أذهب؟ ليس عليَّ أن أتردد. قبل أن أذهب يجب أن أبحث عن المصور في كل مراحيض العالم، فهو يخرج من مرحاض ليدخل آخر، وتبريره لذلك الحق في المرحاض.

بحثا عن الغائب. الذي هل هو المصور أم عبد الرحيم الأزرق

خرجت من غرفة الفندق، وذهبت نحو مقهى شربت فيه قهوة، ثم تظاهرت بالرغبة في دخول المرحاض بحثا عن المصور، لكني وجدته فارغا. ذهبت لأسير في شوارع وطرقات وأزقة فاس، وأنا ألتقط من أفواه الناس ما يرددونه عن الشائعة، وأجد أنها قد انتشرت كالنار في الهشيم. كلمت المصور بالهاتف، فرد علي بأنه في المرحاض. سألته:

ـ في أي مرحاض؟

قال:

ـ هل تريدني أن أصفه لك؟ يا أخي هو مرحاض كباقي المراحيض.

أوضحت له أنني أقصد بسؤالي المكان الذي يوجد به المرحاض، حتى ألحق به.

قال لي:

ـ أ السي عباس، أنا عندما أكون في المرحاض، لا أحب أن يزعجني أحد.

ثم قطع الخط.

وفي ذلك الطواف بالشوارع تصورت أنني قد رأيته، فمن رأيته يمكن أن يكون هو عبد الرحيم الأزرق. دون أن أشعر، أخذت أقدم تغطية صوتية لمرور عبد الرحيم في الشارع. وجدت نفسي أقول:

"ها هو بقامته القصيرة يمر الشارع، قريبا من (مقهى النهضة). وها هو يسير في اتجاه (مقهى المنار الفضي). ثم ها هو يذهب في اتجاه (مقهى الديك الذهبي). وها هم الناس يتجمعون حوله. وها هو يحادثهم. وها هو الزحام يشتد حوله ويتحول إلى طوق يحيط به. وها هم رجال الأمن يتدخلون بالعصي والهراوات لتفريق المواطنين. وها هو...".

ثم اكتشفت جنوني، وتوقفت عن تقديم تلك التغطية الصوتية لوهم اسمه عبد الرحيم الأزرق. لكن جنون عبد الرحيم سكنني، فعدت أقول:

"ها هو يقف وسط الجموع ويحييهم بيده. وها هو يوزع ابتسامته على

الجميع. وها هو يركب الحافلة المتجهة نحو (باب الفتوح) ليكمل الطريق إلى مستشفى الأمراض العقلية في (سيدي بوجيدة)". وها هي الجمع تلحق به، وتتجمع عند باب المستشفى. وها هو يدخل إحدى القاعات ليتردي لباس الممرضين الأبيض ثم يحمل قلما ودفترا كبيرا ليقف عند الباب ويسجل أسماء من يطلبون أن يصبحوا نزلاء في المستشفى. لحظة نادرة لم يصورها المصور. وها هو كلما سجل اسم أحدهم في الدفتر يشير له بالدخول ويسلمه إلى ممرض آخر ليأخذه إلى الداخل. ها هي الجموع الغفيرة تقف عند باب المستشفى، ورجال الأمن يُنظمونهم في صفوف، وها هم يدخلون جميعا. وها رجال ألأمن يلتحقون بهم".

محاولة جادة لتغطية جادة، لظهور عبد الرحيم الأزرق

مرة أخرى حسبت أنني قد رأيته، فهو كما قيل لنا يتجول في الشوارع بين الناس، ويركب الحافلة، ويجلس في المقهى، ولكن نظرا للفضول وكثرة الأسئلة فقد اختفى فلم يعد أحد يراه.

أحسبه قد عاد إلى الظهور، والآن أراه أمامي وهو يدخل العمارة التي تقيم فيها أخته ربيعة، العانس كما قال عنها أحد السكان، ثم قال إنها تقيم وحدها في الشقة ١٩ بالطابق الرابع، وهي تعمل في إدارة للضرائب، وعلاقتها بأخيها عبد الرحيم تكاد تكون مقطوعة، فحتى حينما كانت قامته عادية فهو لم يتعود على زيارتها، ولاشك أن زيارته لها الآن وهو قزم تكتسي أهمية خاصة، ويمكن أن نقيم عليها بعض الافتراضات، من بينها أنه قرر الاختفاء عن الأنظار فلم يجد سوى شقة أخته ربيعة، الواقعة في أطراف المدينة، وفي الحي الذي نحن فيه الآن، وهو (حي الموظفين)، حيث توجد

العمارات السكنية المتشابهة التي لا تميزها سوى الحروف والأرقام على مداخلها.

من بين تلك الافتراضات أن أمرا له علاقة باللحظة التي تحول فيها إلى قزم، وبهذا البيت بالذات، فكأنه يستعيد اللحظة التي وقع فيها تحوله من رجل عادي إلى قزم، وهنا بالذات، في هذه الشقة. وهناك افتراض آخر، هو أنه بمجيئه إلى بيت أخته قد أراد أن يستعيد أيام الطفولة معها، ويتذكر تفاصيل صغيرة عن تلك المرحلة من العمر، كاد يمحوها النسيان.

لو كان المصور حاضرا، ومعه الكاميرا، لدخلنا بيت ربيعة الأزرق لنجري مقابلة مع أخيها ومعها وهما يحكيان بعض الأحداث التي عاشاها في طفولتهما. لكنه يتأخر عند دخوله للمرحاض.

عودة إلى المصور وهو يتأخر في المرحاض:

وجدتها قد عاد قبلي إلى غرفة الفندق. لم ألمه على غيابه ليوم كامل قضاه وهو يتجول بين المراحيض، فقد أصبح هو من يساعدني على حل مشاكلي المالية. مع صمته بقيت صامتا. ثم سألني كيف قضيت نهاري، فأخبرته بما عشته خلال النهار. دعاني للعشاء في مطعم. قلت له:

ـ لست جائعا.

قال:

ـ أكلت شيئا خلال النهار؟

قلت له:

ـ عندما سرت مع الجموع التي تتبع عبد الرحيم، إلى أن وصلنا إلى المستشفى، أخذت دوري، وعندما سجلني ودخلت، أعطوني طعاما.

قال:

ـ وشبعت؟

قلت له:

ـ شبعت.

سباق المائة متر وراء عبد الرحيم الأزرق

قررت أن آخذ شهادات عديدة مصورة مع أصدقاء ومعارف وجيران عبد الرحيم، ولكن الحديث معه والتقاط صوره هما الأهم.

أحببت أن أسأل الدكتور جاكار عن الممرض عبد الرحيم الأزرق، وعن مزاجه ونظرته للحياة، أو فلسفته في الوجود، فحتى الناس الذين تكون لهم ثقافة محدودة، لا تخلو أفكارهم من تفلسف، ونظرة تأملية.

تصورت أنني سوف أجد عبد الرحيم بين يدي الدكتور جاكار، وهو يُعد الحقنة ليحقنه بها، ثم يتفحص وجهه وعينيه وأسنانه، ويختبر ردود فعله بضربة بقضيب معدني على ركبته. إن وجدت الأمر كذلك، فسوف أبرهن للناس بالصورة والصوت على أن عبد الرحيم نزيل في المستشفى وليس ممرضا به كما زعموا. وسيزداد أثر المفاجأة عندما يخبرني الدكتور جاكار بأن تلك الحقنة ليست من المورفين، وإنما هي منشط من المنشطات، فالمسيو عبد الرحيم مقبل على سباق المائة متر، وعليه أن يدخل هو الأول حتى

يفوز بالكأس.

أصبح لزاما علي أن أتابع عبد الرحيم وهو يرتدي اللباس الرياضي الذي يرتديه العداءون، وهو يحمل رقم ٢٤٦٨٩١٠٤٥، ثم وهو يلتحق بالحلبة، ويقف في صف واحد مع باقي العدائين. عند إعلان الانطلاق، تصورت أنني أقدم تغطية حية للسباق، فأخذت أقول بحماس شديد:

"ها هو عبد الرحيم يعبر عن لياقته البدنية، واستعداده للجري وراء الريح، ولعله في هذا السباق سوف يقوم بتحد كبير هو أن يقبض على الريح. وها هو يركض، ثابت الخطى، ناظرا نحو الأمام. وها هو يتجاوز بعض المتسابقين، ويصبح في الطليعة. وها هو يحيي الواقفين على الرصيف. وها هو يثبت كفاءته في العدو الريفي. وها هو يتوج كبطل في هذا السباق، ويفوز بالكأس الذهبية. وها أنا أتقدم وأسأله:

- لمن سوف تهدي هذه الكأس؟

فقال:

- إلى كل من عيروني واتهموني بالقصور والضعف الجسدي".

أتابع خطواته بعد أن خرج من ميدان السباق. أتابع التغطية:

"ها هو يمر بشارع مُحَمَّد الخامس. وها هو يدخل مخبزة ويشتري خبزه اليومي. وها هو يمر أمام (مقهى الديك الذهبي). وها هو يرسل التحية من يده لثلاثة أفراد يجلسون إلى مائدة على الرصيف، يبدو أنهم من أصدقائه أو معارفه. وها هو يمر بالشارع، محفوفا بالرعاية الإلهية، لا يعترض سبيله أحد،

ولا يضايقه أحد، ورغم أن الناس لا يبجلونه، ومنهم من يحتقرونه، فمروره بالشارع لم يسجل أي حادث. وها أنا ألاحقه عرقان ألهث وراءه، ومن غير أن يكون المصور معي، فكما علمتم، فهو إن اختفى عن نظري يكون في المرحاض.

الباب الثالث

[يشمل رواية لكل من مريم طليقة عبد الرحيم الأزرق وولديه عبد الغني وبديعة، وهي رواية تفضح الكثير من أسرار العائلة].

الرواية الأولى

(لمريم طليقة عبد الرحيم الأزرق، وهي تكاد تشبهه بالكومسير ثابت الذي كان قد حكم عليه بالإعدام، من حيث فظاعة ذلك الشيء، وتشهد بأنه كان يعاشر النساء نزيلات المصحة، وتتشفى، وتتوعده بالحرق بالنار التي أحرقها بها يوم أن طلقها).

مع عبد الرحيم في الحمام

تصورته معي وأنا وهو نستحم في الحمام، فرأيت منه ذلك الشيء المنتفخ، الشديد الاحمرار، وهو أكبر من أير حمار، تصلبه شديد وعروقه نافرة، وكأن ذلك الشيء آلة معدنية لا قطعة من لحم بشري. أصابني الرعب. لم يدرك خوفي من ذلك الشيء، فَهَمَّ بي، وحينما مانعت أخذ يتوسل إلي، ويقبل يديَّ ووجهي وعنقي وصدري. وأنا أتعجب من أن عضوه قد تحول إلى شيء ضخم، منتفخ العروق، حتى أصبح آلة للتعذيب، فقد استمر في توسله، وهو يَهُمُّ بي. قلت له، على سبيل أن أهدئه:

- انتظر، ريثما ننتهي من الاستحمام ونأتي إلى الفراش.

بدا حزينا وقال لي:

- يصعب عليَّ الانتظار.

قلت له:

- كل صعب يهون مع الصبر.

أسرعت في الاستحمام ثم خرجت من الحمام وتركته يغتسل. بسرعة كبيرة ارتديت ملابسي وغادرت البيت. استجرت بإحدى صديقاتي وفي صباح الغد ذهبت عند القاضي وطلبت الطلاق. توقعت أن يأمر بإجراء الخبرة على عبد الرحيم، لكن القاضي صدق الشكوى وأمر بالطلاق، فدعا عدلين من مكتب مجاور لمكتبه ليشهدا على طلاقي من عبد الرحيم. وقبل أن يحضرا، سألني:

ـ هل حالته كحالة الكومسير ثابت؟

قلت له:

ـ أنا لم أكن مع الكومسير ثابت، ولم أره منه ذلك الشيء. لكني كنت مع زوجي في الحمام، ورأيت ذلك الشيء وقد تغير، فأصبح أكبر من أير حمار.

سألني:

ـ وهل مارس معكِ وهو على هذه الحال؟

قلت له:

ـ أنا هربت من الدار.

عندما عدت إلى الدار لأخذ ملابسي وحاجياتي، تقابلت مع عبد الرحيم. سألني:

ـ أين كنت؟

أخبرته بأنني قد حصلت على الطلاق منه، وأنني سوف آخذ حاجياتي

وأرحل. أخذ يبكي ويتوسل إلي، ويقول:

. أنا لا امرأة لي غيرك، ولقد عاشرتك بالحسنى، فكيف تطلبين مني الطلاق؟

أشرت إلى وسطه. بدا وهو لا يفهم. سألني:

. ما معنى هذه الإشارة؟

قلت له:

. ألا تشعر بأنك تحمل في وسطك آلة تعذب بها من تقع تحتك؟

استغرب ما أقول، وقال لي ضاحكا:

. هل تحسبينني أنا الكومسير ثابت؟ حرام عليك. أنا رجل عادي، والكومسير أدين بجرائم اختراق أرحام النساء، وحوكم ثم أعدم. تشفع في الملك ليعفو عنه ولم يستجب الملك لطلب الشفاعة.

قلت له:

. ما شأني أنا بهذه الأمور؟ رعب أصابني وأنا وأنت في الحمام، ولقد رأيت في وسطك ما رأيت.

قال لي:

. ماذا رأيتِ؟

قلت له:

. كما خجلت من أشرح للقاضي وأنا أطلب الطلاق أخجل من أن

أقول لك ما رأيت.

أسرعت في جمع حاجياتي، وعندما أردت أن أغادر البيت، أقبل عليَّ ودموعه تنهمر من عينيه. قال لي:

ـ يا مريم، هل سوف تتركينني؟ إذا تركتني فسوف أجن.

قلت له:

ـ أن تُجَنَّ وتدخل مستشفى الأمراض العقلية خير لك من أن يصدر في حقك حكم بالإعدام.

بدا متألما لما قلت، وتركني أغادر البيت وهو مستسلم. أحزنني أن أفارق أب ولديَّ وهو على هذه الحال، لكني خفت من أن يتقوى عليَّ فيفعل بي ما كان الكومسير ثابت يفعله بنساء يستقبلهن تحت ضغوط وإغراءات في إحدى الشقق، التي زود كل غرفها بكاميرات، ومرايا، وكان بآلته التي في وسطه يخترق أرحامهن، ويصيبهن بآلام يستلذ بها.

هكذا قيل، وحيث انتشر خبر الكومسير ثابت، بين النساء، حتى أصبحت كل امرأة تخاف على فرجها ورحمها وهي تضاجع رجلا هو زوجها في الحلال أو رجلا في الحرام.

بعد الطلاق، لم أرد أن أخبر ولدينا عبد الغني وبديعة بما كان يفعل بي، ومع إلحاحهما على معرفة أسباب الطلاق، فقد أخذت أبحث عن أسباب بدت لهما غير مقنعة.

مع مرور الأيام، وصلني خبر ما وقع له. حسبت أن امرأة سحرت له

فتحول من رجل عادي إلى قزم. أحببت أن أرى القزم عبد الرحيم الأزرق الذي كان زوجي، ولم تتح الفرصة إلا في المستشفى، فهناك التقيت به لقاء الغرباء، وكأنه لم يعاشرني ولم أنجب منه عبد الغني وبديعة.

أخبرتني امرأة هي إحدى نزيلات المستشفى بأن عبد الرحيم يضاجع النساء النزيلات. أصابتني الغيرة. لم أدر كيف يمكن لرجل عاقل أن يضاجع مجنونة تبول في حوائجها وتقضي حاجتها في سروالها ولا تغسل جسدها إلا مرة في الأسبوع، تقف خلالها الحارسة لتأمرها بأن تتعرى ثم تقذف جسدها بالماء الساخن، وحينما تمد لها يدها بقطعة صابون تأخذها ثم تشرع في أكلها. تنهرها الحارسة. تصرخ، وتبكي، وحينما تقدم لها الحارسة منشفة، لا تستطيع أن تنشف الماء من شعرها وجسدها، والحارسة هي الأخرى لا تستطيع أن تقترب منها لكي تساعدها، فهي تتوقع أن تنقض عليها لتخدش وجهها بالأظافر.

المرأة التي أخبرتني بذلك، قالت لي تلك المرأة الحمقاء اسمها شمس الضحى، وهي ليست واحدة بل هناك نساء كثيرات حمقاوات، من بينهن واحدة تسمى مرضية بنت الشعط، وأخرى اسمها ميراي، يهودية هاجرت إلى إسرائيل عام ٦٧ ثم عادت إلى (مَلاَّحِ فاس)، وعندما جُنَّتْ أدخلوها مستشفى الأمراض العقلية. ويقال إن ميراي هذه بالذات، كانت لها علاقة عشق قديمة مع زوجي السابق عبد الرحيم، وذلك قبل أن يتزوجني.

حينما التقيت معه في المستشفى، دعاني لأن ألتقي معه في الفراش. قلت له:

ـ أما وأنت في وضعية طلاق.

قال:

ـ أنتِ طَلَّقتني، أما أنا فلم أطلقك.

حاولت أن أخرج من المستشفى فاتهموني بنية الهرب، ومنعوني من ذلك. أنا لست مجنونة، وهم يعرفون هذا، ومع ذلك فقد ظلوا يحتجزونني ويمنعونني من الخروج. ولولا زيارات ولدي عبد الغني وابنتي بديعة لضقت بالعيش في هذا المستشفى. من ذكائهما أنهما أخذا يزورانني في جناح النزيلات، ويزرن والدهن في جناح النزلاء، وعندما يزورانني، يتحاشيان أي حديث عنه، يساعدني على أن أفهم، هل زوجي السابق عبد الرحيم الأزرق الذي قضى سنوات من عمره في ممرضا في مستشفى الأمراض العقلية ما يزال ممرضا أم أنه قد أصبح هو الآخر نزيلا به. من يشرح لي هذا؟ أما كونه قد تحول إلى قزم، فقد يكون قد أصبح قزما بالفعل، ودخل المستشفى بصفته نزيلا. وأما آلته التي يخترق بها أرحام النساء، فهي ولا شك سوف تؤدي به إلى الإعدام كما أعدم الكومسير ثابت.

ثم جاء يوم ندمت فيه على كل ما فعلت. فقد تيقنت من أن عبد الرحيم لم يكن يحمل في جسده آلة التعذيب تلك، التي يخترق بها أرحام من يضاجعهن. أنا ظلمته. توهمت أنه هو الكومسير ثابت وهو من يضاجعني. لذلك أخذت أرعب العيش معه في الفراش وطالبت بالطلاق، والقاضي الذي أمر لي بالطلاق هو الآخر كان واقعا تحت كل ما قيل، وأكدته الأخبار، عن جرائم في حق النساء، ارتكبها الكومسير ثابت. عندما سألني

القاضي عن سبب مطالبتي بالطلاق، أصابني الخجل، ثم عدت إلى السيطرة على نفسي وقلت للقاضي:

. إنه كالكومسير ثابت.

استعاد بالله، ولم يطلب مني أن أقدم له شهادة طبية من طبيب متخصص في الأمراض النسائية تثبت تعرضي لعلاقة جنسية تضرر منها رحمي أية أضرار. لكنه دعا العدلين وأمرهما بكتابة الطلاق.

الرواية الثانية

لعبد الغني الأزرق، ولد عبد الرحيم، وهو لا يصدق، وأمه مريم تخاف عليه من تأثير الشائعة على سمعته.

خبر من الوالدة بواسطة الهاتف

أمي هي التي أخبرتني بأن والدي قد تحول إلى قزم، في مكالمة هاتفية أخذت خلالها تدخل وتخرج في الكلام، وتضحك، فتبدو فرحانة بما وقع للوالد، ثم يتغير صوتها وتبدو كأنها تشفق عليه، وهي على وشك البكاء.

في تلك اللحظة التي تلقيت فيه مكالمة والدتي، كان أمامي مكتبي شغل كثير. لم أصدق ما قالته والدتي من أن والدي قد تحول إلى قزم. قلت في نفسي إنها طليقته وهي بمثل هذه الخرافات تنتقم منه. قررت أن أواجهها. قلت لها:

. يا أمي هل تظنين أنني وأنا أمامي الشغل في مكتبي أجد الوقت الكافي لمثل هذه الخرافات؟

قالت لي:

. يا عبد الغني، ما حدث لوالدك أهم من الشغل الذي أمامك في مكتبك. ألم يصلكم الخبر إلى الدار البيضاء؟

بدا على صوتي الانفعال وأنا أقول لها:

. ماما، هل أنت تمازحينني. هل يعقل أن يتحول إنسان عادي إلى قزم؟

قالت:

. الشائعات تقول ذلك.

قلت لها:

. يا أمي أنا لا آخذ بالشائعات. شائعات كثيرة راجت حول بعض الشركات فأفسدت علاقتها مع الزبائن.

سألتني:

. وبماذا تؤمن يا ولدي؟

قلت لها:

. يا أمي ليس هذا هو الوقت المناسب لكي أشرح لك ما أومن به وما لا أومن به.

سألتني:

. هل تترك والدك للشائعات؟ ألا تحاول أن تلتقي به لتثبت للناس أنه لم يتحول من رجل عادي إلى قزم؟

قلت لها:

"يا أمي، كما تعلمين، فأنا غارق في شغل الشركة، وأنا أعيش في الدار البيضاء، والخادمة لم تحضر للقيام بعملها لعدة أيام، وزوجتي ن

لدي شغل كثير، وأنا سأتصل بك في الليل.

قالت:

بقيت ذاهلا. تشتت ذهني. لم أعد قادرا على التركيز على الأوراق التي أمامي.

كيف أصدق أن والدي عبد الرحيم الأزرق، الذي عاش حياته كلها بقامته العادية يتحول فجأة إلى قزم؟

لا يمكن. أنا رجل عقلاني، أفسر كل الظواهر التي تقع بتفسير العلم، مع أنني أعلم أن ظواهر أخرى لا يفسرها العلم، وهي التي تفتح المجال لتفسيرات غيبية تعتبر تلك الظواهر ما ورائية، وأنا لا شأن لي بهذه الأمور.

مصدر الإشاعة

وجدت أن والدتي هي مصدر الإشاعة، فهي من أطلقتها أول الأمر من بيتنا الواقع في (حومة باب الخوخة) خلال أحاديث مع الجارات. من تلك الحومة انطلقت الإشاعة لتنتشر في كل أحياء مدينة فاس، ثم انتقلت إلى عدة مدن.

ذلك ما جعلني أهتم بالإشاعة وأثرها على حياة الناس. زميل لي في العمل، عرف بنزاهته واستقامته، وحينما رفض أن يأخذ، ليعطيهم مما أخذ، أشاعوا عنه أنه مرتش، ولما انتشرت الإشاعة، أصبح هناك من يتوافدون عليه ليقدموا له رشاويهم، ولما كان يمتنع عن أخذها، فقد جاء من صوته بكاميرا خفية وهو يدفع المال للراشي، فاعتبرت الحركة التي صدرت عنه اعتراضا عن المبلغ لأنه غير كاف. بالتأكيد، ففي عالم الإدارة، وحيث يحضر

الفساد، والرشوة، فلابد أن يكون هناك مرتشون، ومجرد متهمين بالرشوة، رغم أنهم لم يتقبلوها من أحد.

الناس يقولون ما يشاءون، وهم لا يُقَدِّرون خطورة ما يصدر عن ألسنتهم من كلام، سيما إذا تعلق بنزاهة موظف واتهامه بالرشوة. إن كان موظفا نزيها فهو يعاني من ألم نفسي شديد يحطم حياته، فيصاب بالأرق، وإن طلب من مدير عمله أن يفتح تحقيقا حول نزاهته أو عدمها فالمدير لا يفتح ذلك التحقيق، لأنه إن بدأ بذلك الموظف فشأنه أن يصل إليه وإلى نزاهته في العمل. لكي يطمئن الموظف يقول له مدير عمله:

"أنا المسئول عن هذه الإدارة، وأنا لم أتهمك، فعليك أن تنسى الإشاعة وتستريح. كلنا في هذه الإدارة نعلم أنك موظف مستقيم، وعليك ألا تأبه بالإشاعات. يمكنك أن تأخذ عطلة لأسبوع، يستريح فيها ضميرك، ثم تعود إلى عملك بنزاهتك المعهودة، كما أنا نزيه، والمحاسب نزيه، والموظفون الآخرون كلهم نزهاء، فلا تحسب نفسك أنت النزيه الوحيد فوق هذه الأرض".

قبل أن يغادر الموظف مكتب المدير، يراه وهو يتحدث مع المحاسب بالهاتف ويطلب منه أن يأتيه من الخزنة بعشرة آلاف درهم.

أتذكر هذه الحادثة وأقول كان الله في عون الوالد، فكيف عليه أن يثبت للناس أنه لم يتحول إلى قزم، وهل هو متهم حتى يقدم دليل براءته؟

صورة الوالدة

كانت الوالدة تضحك ضحكتها الصافية الرنانة لأتفه الأسباب، وتقول

قلبها عامر بالضحك، وهَمُّ الدنيا يبقى فيها، فإن لم يضحك الإنسان فماذا عليه أن يفعل، يبكي، أو يضع يده على خده من الحزن ويظل ينتظر أن يحدث شيء يرضيه؟

قلبها لا يعرف الحقد على الناس، وهي غالبا ما تنسى ما يوجهونه لها من إساءات، فحتى وإن اعتذر لها أحد عما كان قد صدر منه فهي تقول له:

ـ أنا نسيت.

يحسب ذلك الشخص أنها تتخلص بهذه الطريقة من أي عتاب قد يعكر اللحظة، ولكنها أمي وأنا أعرفها جيدا، تكون قد نسيت بالفعل، فكأن ذاكرتها لا تحتفظ إلا بالأشياء الجميلة، المفرحة، والباعثة على الضحك. أنا لم أر في حياتي مثيلا لها بين الناس، فذاكرتها تختار ما تحفظه وما عليها أن تنساه تماما، وحتى لا تتذكره فيما بعد.

هذه هي الصورة التي أحتفظ بها للوالدة، قلب عامر بالضحك، وتسامح مع الناس، ولكنها مع كل ذلك كانت تخفي جرحا عميقا في نفسها، نشعر به، ونراه وآلامه تطفو على نظرتها ووجهها، ثم نراها وكأنها تشعر بما نراه، فتداري ما يظهر عليها وتغير من وضعها لتبدأ في الضحك لأتفه الأسباب.

كان هذا هو حالها قبل الطلاق، لكنها بعده تحولت إلى امرأة أخرى، فصارت تحلم بالكوابيس، ولا تنتظر أن يُصبح الصباح لتقص علي أحلامها المزعجة، بل تكلمني بالهاتف بعد منتصف الليل، فأنسلُّ من الفراش حتى لا

أزعج زوجتي سهام وأذهب إلى غرفة أغلق بابها عليّ، وأظل أسمع والدتي وهي تقص عليَّ ما رأته في المنام. كانت السماعة تُسبب حرارة في أذني، والوالدة لا تسمح لي بأن أعلق على ما تقصه من أحلام، أو أن أطمئنها إلى ذلك مجرد أضغاث أحلام، لا صلة لها بالواقع، أو أن أطلب منها أن تشرب حليبا دافئا يُهدئ أعصابها ويساعدها على النوم.

عندما أخبرتني بأن والدي قد تحول إلى قزم، أخذت تتحسر عليّ وهي تتحدث عن أصهاري الذين لن يقبلوا أن يكون جد أحفادهم محاطا بهذه الشائعة. سيقولون: "لا دخان بدون نار". وسهام زوجتي لن تقبل أن يكون والدي هو ذلك القزم، وأما حماتي فهي تصنع من الحبة قبة، فما بالك برجل عادي يتحول إلى قزم. والزملاء في عملي، والفضيحة؟

اتصلت بأختي بديعة التي تقيم مع زوجها في السعودية، فوجدت الشائعة قد وصلتها عن طريق الوالدة. ضحكت أختي وقالت لي:

ـ تصور يا أخي عبد الغني أنني عندما أذهب إلى النادي الرياضي أواجه فتيات سعوديات يسألنني عن الشائعة التي تتعلق بوالدي.

صورة الوالد

بعد حادثة الطلاق لم يتزوج، ومادامت الوالدة قد غادرت الدار فقد بقي فيها وحيدا. رغم أنني لم أره منذ أكثر من سنة، بسبب ثقل كاهلي بأعباء الشركة والبيت، مما لم يسمح لي بأن أزوره في بيتنا القديم في فاس، فقد تصورته يعيش غربة حقيقية، بعد أن تركته الوالدة، وسافرت أختي مع زوجها إلى السعودية. مكالماتي معها كانت تدور حول مشكلة الوالد

ومشكلة الوالدة. كل واحد منهما له مشكلته الخاصة. تساءلنا عن مكان إقامة الوالدة، فهي تقول إنها تقيم مع أخيها الأعزب الأبدي. وهو يقول إنه لم يعد يشتهي الطعام، فقد أصابه السقام، وهو بين حين وآخر يزور أخته ربيعة فتعد له صنوفا كثيرة من الأطعمة، لا يذوق منها إلا القليل.

الوالدة تقول لنا لا تصدقوه، فهو إن وجد جملا مشويا يأكله، لكنهم في مستشفى الأمراض العقلية لا يقدمون للنزلاء جمالا مشوية، وإنما حبات قليلة من العدس في صحن مسطح، مع قليل من الخبز.

أما عن بقائه مطلقا، من غير أن يتزوج، فكانت الوالدة تقول لنا:

. لو بحثتم في أمره لوجدتموه قد تزوج أربع نساء، وأنجب منهن ثمانية أخوة لكما، أقصد أن كل واحد منهم هو نصف أخ، لأنه من جهة الأب وحسب.

تهدئ بديعة من روعها، وتقول لها:

. يا أمي أنا أعرف بابا. لو أراد أن يتزوج، لتزوجك أنت.

أحاديث كانت تدور بالهاتف بين الوالدة وأختي بديعة، تنقلها إليَّ عبر بعض المكالمات، كما كنتُ أنا أنقل إليها عبر الهاتف أحاديث أخرى أجريها مع الوالد، فقد كان هو في جناح الرجال بينما هي في جناح النساء.

كنت بعد كل مكالمة أبحث عن مكان أختلي فيه بنفسي وقد داهمني الحزن إلى حد البكاء، ثم أحتمل وأعود للوقوف حتى لا يصيبني الانهيار. هل يُعقل أن يخسر الإنسان أبويه معا، دفعة واحدة، وهما على قيد الحياة؟

الرواية الثالثة

لبديعة الأزرق، وهي تتصور أن الأقزام لا يوجدون في السعودية، وإن وجدوا هناك فستعرف أن الأقزام يوجدون في كل مكان.

بديعة وعالية وحديث عن الأقزام

قالت بديعة لصاحبتها عالية التي جاءت لتزورها من الظهران:

. هل يوجد لديكم في السعودية أقزام؟

ضحكت صاحبتها وقالت:

. يوجدون في السيرك، والسيرك لا يأتي إلا للرياض.

ثم بعد حين قالت عالية:

. لماذا تسألين هذا السؤال؟

ترددت بديعة وبدا عليها الارتباك، وقالت:

. رأيت قزما في التلفزيون، وشككت هل هو قزم بالفعل أم أنهم في الأستوديو قد أتوا بطفل وصنعوا له قناعا بوجه رجل، وعودوه على حركات الأقزام، ليظهر وكأنه قزم.

لم تأبه عالية للموضوع، لكن بديعة عادت تسأل:

. هل سبق لكِ يا عالية أن رأيت قزما عن قرب؟

قالت عالية وهي تضحك:

. في السيرك طبعا.

. وفي حيكم، أو من بين زملائك في الدراسة، ألم يكن هناك قزم؟

. لا، لم يكن.

تعجبت عالية من هذا الحديث، فقد جاءت لتتناول مع بديعة الكسكس المغربي وتتفرج على شريط غنائي ترقص فيه الحاجة الحمداوية وتغني، ثم تتبادلان الحديث عن طبيعة المغرب وجماله، وما فيه من جبال وأنهار وغابات وصحار وبحار، وعن مدنه، فهي إن شاء الله، في عطلة زوجها القادمة، سوف تسافر معه إلى مراكش، وفاس مدينة صاحبتها بديعة، فما للحديث وما للأقزام، وهي لم تسمع بالأقزام ولم تهتم بهم منذ أن كانت تلميذة في المدرسة الابتدائية تقرأ عنهم القصص التي تحكي عن مدينة الأقزام والسلالم التي يصعدون بها إلى الأكواب ليشربوا منها الماء، وأحذيتهم التي كانت صغيرة جدا، فما الذي جعل صاحبتها بديعة المغربية تدير الحديث حول الأقزام؟

كانت بديعة في المطبخ تضع اللمسات الأخيرة على صحن الكسكس، وعالية تقف بجوارها، وبعد أن تحدثتا عن تفاصيل إعداد الوجبة، أخذت بديعة حبة حمص وقالت لعالية:

. كم من الأقزام يأكلون ويشبعون من حبة الحمص هذه؟

ضحكت عالية ثم قطبت جبينها وهي تتساءل عما أصاب بديعة حتى

صارت لا تتحدث إلا عن الأقزام. وحملت بديعة طبق الكسكس إلى مائدة الطعام وقال:

. تركت لشكيب نصيبه، وإن كان الكسكس يؤكل فور إعداده ولا يتبقى إلى حين آخر.

أكلت بديعة وهي شاردة، فقد كانت تفكر فيما أخبرتها به أمها بالهاتف. هل بابا أصبح قزما؟ الله يسامحك يا ماما، أما كفاك ما أنا فيه هنا؟ أقضي أيامي محجوزة هنا في البيت، إن أردت الخروج فلابد أن يكون معي زوجي، أخرج معه وأنا أرتدي لباس المحارم. في فاس كنت أخرج إلى العمل وأرى الشارع وألتقي بالناس، والرجل لم يكن غولا يخيفني ففي العمل كان لي زملاء أتبادل معهم علاقة الاحترام، أما هنا فالرجل غول، وملابسي لا أرتديها إلا في البيت أو تحت العباءة إن كنت سأخرج مع شكيب. وإلى أين سوف نخرج؟ شوارع طويلة عريضة تصفر فيها الريح، ومحلات تجارية يكثر عليها الزحام ومبيعاتها لا تغريني. يقول شكيب نصبر حتى تنتهي عقدة السنتين التي أمضيتها ونعود إلى المغرب لنبني فيلا رائعة ونشتري سيارة من آخر طراز، وها أنا صابرة، لكن ماما لم تكن تمزح، فصوتها مضطرب في الهاتف، وهي تتحدث عن الوالد الذي تحول إلى قزم، وتؤكد أن الناس رأوه، بوجهه الذي نعرفه جميعا، لكنه تحول إلى قزم.

الباب الرابع

[ويشمل روايتين إضافيتين، لكل من مصطفى التواتي ضابط الاستعلامات وعباس المرادي معد البرنامج التلفزيوني، وهما يتحولان إلى قزمين].

الرواية الأولى

لضابط الاستعلامات مصطفى التواتي، وهو يلتقي بعبد الرحيم الأزرق، ويصغي إلى ابتداعه لنظرية جديدة لخروج المغرب من التخلف.

الأقزام الحقيقيون، الذين ولدوا أقزاما، هل علينا أن نرد قاماتهم عادية، لنتحدى الطبيعة والخلق الإلهي؟ ذلك غير ممكن، فالأقزام الذين ولدوا أقزاما، على الدولة أن تعتبرهم مصنفين ضمن ذووي الاحتياجات الخاصة، لكنهم، لا يعانون من أية إعاقة جسدية، فهم يعملون ويتزوجون وينجبون أبناء أقزاما مثلهم. لذلك، فأول ما على الدولة أن توفره لهم هو ملاعب القرب الرياضية، ووسائل النقل المريحة، والعمل والسكن وكل ما يساعدهم على تحسين النسل من ظروف صحية وتغذية مناسبة، ففي إكثارهم من النسل خدمة لوطنهم. ما علينا، فما نحن فيه هو ما يتعلق بتحول رجل يدعى عبد الرحيم الأزرق من رجل عادي إلى قزم.

صَدِّقْ أو لا تُصَدِّق!

الإشاعات الهدامة حتى وإن تعلقت بأفراد، فهي تمس بسمعة البلاد وتؤثر على السياحة والاقتصاد.

عندما التقيت بعبد الرحيم الأزرق في مستشفى الأمراض العقلية سألني:

. هل تحب وطنك؟

قلت له:

. ومن لا يحب وطنه؟

قال:

. الكل يقول ذلك، لكن الأقوال بدون أفعال.

ثم نظر إليَّ نظرة لها معنى وقال:

. سأغير السؤال؟ هل أنت وطني؟ إذا كنتَ وطنيا فبماذا تخدم وطنك؟

سؤاله حيرني. أخذت أفكر في وضعي، وهل أنا وطني، وبماذا أخدم وطني.

قال لي:

. هل جئت لتسمعني؟

قلت له:

. طبعا. لهذا جئت.

قال:

"خدمة الوطن تستدعي التضحية من أجله، أما ما نلاحظه فهو أن من يدعون أنهم حماة الوطن، هم من يمتصون دماءه ويسرقون ثرواته. لهذا تفتق تفكيري عن فكرة جريئة، وهي أن ندعو الاستعمار ليعود إلى المغرب. فكرة قد تبدو رجعية ولكنها في العمق تقدمية، فأنا كباقي المغاربة الغيورين على

حرية واستقلال وطنهم، لا أحب أن أرى بلدي مستعمرا ولكنها فكرة إن جاز تحقيقها فسوف تعيد للمغرب وجها جديدا وسيتحقق له ما لم يتحقق لحد الآن.

الفكرة يرددها بعض العامة ممن يعلنون أن الاستقلال لم يأت بشيء، وأنهم قد عاشوا في أيام الاستعمار حياة أفضل. لكني أطرحها بشكل مغاير، وهو العودة إلى الماضي من أجل المستقبل، وحتى نرقى بأنفسنا وبهذا الوطن.

استعمار قد يكون فرنسا وإسبانيا أو هو استعمار له اسم آخر، جيشه محتل، وثكناته في كل قرية ومدينة، ورجاله يسيطرون على الإدارة والاقتصاد، وذلك ما سيعيد روح الوطنية والحماس الوطني من جديد صادقا كما كان، وحب الملك وحب الوطن يعود كما كان من الإيمان، والأناشيد والحماس والناس جميعا يعرضون صدورهم لرصاص المستعمر من أجل حرية الوطن، بدل أنهم اليوم يبيعون المبادئ والذمم، ويتاجرون بكل شيء مقابل مصالحهم الشخصية ومصالح أبنائهم.

ساعتها سوف يتخلص رجال ونساء المغرب من المصلحية والفردية والأنانية والانتهازية. المواطنون وزعماءهم السياسيون، إن وجدوا المستعمر يحتل وطنهم ويستبيح خيراتهم ويمنعهم من الحريات، فسوف تتقوى عزائمهم، وتشحذ هممهم، وسينسون مصالحهم الخاصة وهم يدافعون عن الحرية بدمائهم وتضحياتهم، يتساوى في ذلك الأغنياء والفقراء، العمال والفلاحون، التجار والصناع والحرفيون، فتتوحد كل فئات الشعب وتلتف حول صاحب الصولة والصولجان، الذي إن زحزحه الاستعمار عن عرشه

فستقوم القيامة وسيخرج كل المواطنين يعرضون صدورهم لرصاص المستعمر فداء للملك المفدى، رمز الوحدة والحرية.

هناك مبدأ بسيط، واضح وهام جدا، إذا ضاع فقد ضاع الوطن، وهو مبدأ التضحية، فلا أحد اليوم يضحي بشيء من أجل الوطن، وإن تظاهر بالضحية فهو يخطط لوصول إلى هدف يقبض فيه ثمن تلك التضحية. فأين هم الأولون من الآخرِين؟

نبدأ من محاسبة الخونة، وتجار السياسة، وكبح كل شقاق ونفاق بين أبناء الوطن، وبذلك نصل إلى تحقيق الديمقراطية وحقوق الإنسان".

سألته:

ـ آ السي عبد الرحيم، لماذا علينا أن نعاود تجربة الاستعمار؟

قال:

ـ السبب بسيط، وهو أن نُنْهِضَ الهمم الوطنية التي ضعفت، وأن نُجدد من دماء الحب التي تسري في المواطنين نحو وطنهم، لتعود قلوبهم خفاقة بذلك الحب.

ثم سألته:

ـ وأجيال الشباب، وعلاقتهم بالوطن؟

قال:

ـ كما ترى، فهم غير مبالين بما يتعرض له الوطن مصاعب، كلها تعود إلى فشل سياسات الحكومات المتعاقبة، وتكاثر لصوص المال العام. شباب

اليوم يضيعون في الشبكة العنكبوتية.

. وإلى ماذا يعود ذلك؟

. يعود إلى الأسرة والمدرسة اللتين لا تنتهجان خطة في تعلم القيم وتنمية الشخصية، وإلى الأحزاب التي لا تقدم التربية على السياسة.

ثم سألته:

. ألا ترى أن نظريتك حول عودة الاستعمار، هي نظرية رجعية، ولن يقبل بها من دافعوا عن استقلال الوطن.

قال:

. أولا، من دافعوا عن استقلال الوطن، الرحمة عليهم، ومعظمهم، التحقوا بالرفيق الأعلى. أما النظرية فهي بالفعل، تبدو في ظاهرها رجعية، وغير مقبولة، لكنها في عمقها كما ذكرت، لها هدف وغاية هما بعث الروح في الحركة الوطنية وخلق مواطنين يضحون بأرواحهم من أجل الوطن.

. النظرية ماضوية، تدعو إلى العودة إلى الماضي.

. هي كذلك، لكنها تدعو إلى استعادة الماضي من أجل الحاضر والمستقبل.

. والعمل السياسي؟

"أرى أنه قد أصبح لعبة سهلة ظاهرها خدمة الوطن والمواطن وهدفها الحقيقي هو تحقيق المآرب الشخصية. وكم منهم، دخلوا العمل السياسي وعلى فقر ثم ما مرت عليهم سنوات حتى أصبحوا من كبار الأغنياء. ألا قل لي آ السي مصطفى، من أين أتتهم تلك الملايين والملايير؟ في الماضي كانت

العمل السياسي يخدم الدولة ومؤسساتها ويخدم الشعب، أما اليوم فهو يخدم جيوب سياسيين جدد، يمكن وصفهم بالوصوليين والانتهازيين. وفي الماضي كانت السياسة تهمة تلصق بشبان يساريين، نظروا إلى مستقبل البلاد من خلال الاختيار الثوري، لذلك تعرضوا للسجون والمنافي، أما العمل السياسي اليوم فهو آمن، لا يؤدي إلى السجن، وإنما كما يتصوره بعض الانتهازيين يؤدي إلى الثراء المادي.

وهل تعرف شيئا، آ السي مصطفى؟ أنا أعبر لك بحرية عن أفكاري، لأنني كما وجدتني نزيل في مستشفى الأمراض العقلية، وهي وضعية تسمح لي بأن أقول ما أشاء، ولو كنت ما أزال ممرضا في نفس المستشفى للزمت الصمت والحذر، فالخوض في هذه الأمور، يجعلك أنت ضابط المخابرات، وأمثالك، تلاحقونني وتزجون بي في المعتقلات السرية. أما وأنا كما ترونني، مجنون، فالمجنون يقول الحق، ولا أحد يقول الحق في هذا العالم سوى المجانين والشعراء والأنبياء، على اختلاف طريقتهم وأهدافهم.

النظرية لم أستوردها من الخارج. أقصد، من نظريات أخرى ترجع إلى مفكرين يمينيين أو يساريين، لكني أبدعتها. فهل يتقبلها الجميع؟ إذا تقبلها الجميع على ملك المغرب أن يطلب الحماية من دولة عظمى، كما فعل سلفه الملك المولى عبد الحفيظ في بداية القرن العشرين، وبالضبط، في سنة ١٩١٩ عندما طلب الحماية الفرنسية، دون موافقة من أهل الحل والعقد، والنخبة السياسية الوطنية، والعلماء، وكان أن لَفَّ حوله نخبة من هؤلاء وأولئك، ومهد الطريق لفرنسا لدخول المغرب، رغم المقاومة الشعبية في المدن والجبال.

ذلك تاريخ مضى آ السي مصطفى. الآن من ينقد البلاد من تجار السياسة، ولصوص المال العام، ودرأ الفساد؟ ألا قل لي، من يفعل ذلك، الملك أم الحكومة أم ممثلو الشعب في البرلمان؟ إن كنتَ تخاف أن تقول، فأنت تخاف على نفسك، وعلى منصبك، أما أنا فلم أعد أخاف من أحد.

ضابط الاستعلامات يتحول إلى قزم

منذ البدء، فالقزم عبد الرحيم الأزرق، أو من يفترض فيه أنه قزم، أو من تقول عنه الإشاعات بأنه قزم، هو الذي جعلني أفكر في سياسة جديدة للبلاد، أخشى أن تفهم بشكل سيئ وأن تصل أخبارها إلى السيد وزير الداخلية، الذي قد يستغرب أن مجرد ضابط في قسم الاستعلامات، يفكر في سياسة جديدة للبلاد تبدأ من وجود استعماري ووجود لجيش للتحرير والتفاف لكل مكونات الشعب المغربي حول العرش، وإن تعجب السيد وزير الداخلية من الفكرة ولم ترقه فلا شك أنه سوف يأمر، مترددا، بإحالتي على التقاعد المبكر، ثم سيعيد النظر في الأمر، ويقرر تسريب معلومات للجرائد عن ممارساتي التي كانت معادية لدولة الحق والقانون، ليتم التشنيع بي، وتوريطي في ملفات كنت قد أمرت بأن أنفذ فيها بعض الأوامر، ولم يتمكن من محاكمتي، علنيا، لأن المحاكمة سوف تفتح المجال لمحاكمات، وسأصبح قضية وطنية، لكنه سيفكر مليا، وسيجد الحل، وهو أن تنزل بي أقصى العقوبات، وبدون محاكمة، وهي عقوبة بسيطة، سهلة، لا يحتاج السيد الوزير إلى أن يأمر بها، وهي أن يجعلني شائعة من الشائعات، فينتشر خبر عني، بين المواطنين، يورطني مع زوجتي وأبنائي وأصهاري، وهو أنني قد تحولت بين عشية وضحاها إلى قزم.

للأسف، فلو علمت بما يطبخ لي في مطبخ وزارة الداخلية لكنت قد أكلت كثيرين قبل أن أؤكل، ولصيرت بالشائعات أسماء معروفة في الحياة السياسية كأقزام، وبعدها وإن صيروني قزما فالكل في واحد، ولكنهم لم يفهموا أننا نعيش في وطن واحد، يضيق ويتسع، وأن شرب كأس مع رجال خطيرين، يمكن أن يحول الإنسان العادي إلى قزم.

القزم نفسه يتذكر تاريخ طول قامته، وتواريخ الأقزام. كلهم أقزام. كلنا أقزام، والقزم للأسف، لا يعرف أنه قزم.

الرواية الثانية

لعباس المرادي مقدم البرنامج التلفزيوني، جمع فيها روايات متعددة، للمسيو جاكار، وبعض الممرضين في المصحة العقلية، ورواد مقهى زاكورة الذي يرتاده عبد الرحيم الأزرق، وبعض الجارات والجيران، ومنهم رجل يدعى شارل برانسون، ومرشح الحي للانتخابات البلدية، وهو أيضا يتحول إلى قزم.

المسيو جاكار يتحدث عن المنفى

في البدء وجدت صعوبة كبيرة في أن أجعل الناس يتحدثون عن عبد الرحيم الأزرق، فقد كانوا يتحدثون عن أنفسهم، أو كانوا يتحدثون عنه فيما بينهم ولا يرغبون في أن يتحدثوا عنه أمام الكاميرا.

المسيو جاكار ألقى علينا محاضرة طويلة حول وضعية المصحات العقلية، وصرح وهو ينفث الدخان من غليونه بأن أمرا ما قد حدث للناس، فصار مرضاهم العقليين أكثر من الأصحاء.

ويتساءل: ما هو هذا الأمر؟

هو انتشار نظرتين متناقضين:

نظرة استعلائية، تجعل من الذات اعتبارا فوقيا، وفوق ذوات الآخرين، فهي عقدة الاستعلاء، وهي نوع من النرجسية، بل هي إحساس بالتفوق والعظمة، فواحد جاهل يصبح رئيس بلدية، وجاهل آخر يصبح رئيس حزب، وجاهل ثالث يكتب في الجرائد ويعجبه اسمه، إنهم جهلة، ولكنهم

يقارنون أنفسهم بعظماء التاريخ، أو على الأقل، برؤساء بلديات في فرنسا، وبرؤساء الأحزاب في بعض البلدان الديمقراطية الأوربية، أو بكتاب جرائد مشهورة في العالم، وعلى صغرهم فهم لا يكبرون إلا على مواطنيهم، بينما التجربة تثبت أنهم صغار لا يعرفون أو يتناسون قدرهم الحقيقي، فماذا سوف يحدث لو التقى عمدة مدينة مغربية مع عمدة مدينة من بلد أوربي، وما هي الثقافة التي يمتلكها كل واحد منهما ليتحدث بها مع الآخر؟ ناهيك عن رئيس بلدية، من بلدياتكم، يلتقي مع واحد كألان جيبي الذي كان عمدة لمدينة بوردو، أو مع جاك شيراك الذي كان عمدة لمدينة باريس. بلدكم متخلف، وحتى تجربتكم الديمقراطية متخلفة، وجرائدكم متخلفة، وكتابكم لا يتقدم منهم ليصبح معروفا إلا من يترجم إلى لغتنا، ولكن هذا التخلف مصحوب بعقدة تفوق، وهي حالة مرضية لست المتخصص في علاجها، لأنها مرض دقيق ويحتاج إلى علاج دقيق، ويمكن لمقولات فرويد أن تنفع، ولكنها متجاوزة، وليست هي كل شيء في خطوات العلاج.

قلنا له الدكتور جاكار من فضلك، جئنا نسألك عن الممرض عبد الرحيم الأزرق.

فقال آه. لم أتحدث بعد عن النظرة الثانية، وعلى سبيل المجاملة سألناه ما هي، منتظرين لحظة استدراجه لموضوع عبد الرحيم الأزرق.

فقال هي نظرة تحقيرية بين الناس، فكل فرد في المجتمع يستعلي بنفسه عن الآخرين، والحالة هنا ليست تكبرا كما هو معروف، بل احتقار للآخرين، فالمرء المصاب بهذه النزعة التحقيرية ينظر إلى الناس حواليه،

وكأنهم ذباب، أو حشرات صغيرة، وهو مركز العالم، وصاحبها يرى أن الناس لكي يترقوا عليهم أن يصبحوا مثله، فهو المثال، والنموذج، وإن لم يصبحوا مثله فهم ذباب، حشرات. هذه الحالة أصبحت معروفة اليوم، والدليل على انتشارها هو أن لا أحد يتواصل مع الآخر، أو يقتسم معه ما لديه، أو يتبادل معه المشاعر. كل فرد أصبح قارة قائمة بذاتها، بما فيها وحولها من مجهول، واكتشاف هذه القارة لا يتم إلا بعلم النفس السريري. ولكن من يعترف بأنه مريض حتى يسعى إلى العلاج؟ من يذهب بنفسه إلى الطبيب النفساني ليجلس أمامه ويقول كل شيء عن طفولته وأحلامه وعلاقته بالآخرين؟ إن ذلك المريض، المفترض فيه أن يفعل هذا، يظل مريضا تحت طائلة الفقر والجهل، فهو لا يملك ما يدفع به للطبيب حق الجلسات، وحتى وإن كانت مصحتنا هذه مجانية فمن القليل أن تأتي أسرة برجل مكبل اليدين وهي ترغب في أن تودعه لدينا لتستريح من شتائمه وبصاقه على الوجوه وتكسيره لأثاث البيت. ولاحظ الهدف، فمن لا يأتون به للعلاج، من يفترض فيهم أن يساعدونا عليه، وإنما ينفون مريضهم في المصحة التي يتصورونها كالمنفى، فهم يرغبون في التخلص منه، وهذه مصحة وليست منفى، فالمفروض أن يعالج المريض ويخرج منها ليعود إلى حياته الطبيعية، لا أن يقضي حياته كلها هنا، كما أقضيها أنا، والممرضين.

عدنا نسأل الدكتور جاكار عن عبد الرحيم الأزرق، فقال إنه لم يكمل كلامه، ووعد بأنه سوف يصل، ثم استمر يتحدث عن الفصام والذهان والأبيسية والأميسية والنرجسية وغيرها من العقد النفسية.

وبالرغم من أننا قد سجلنا كلامه بالفرنسية، واستعنا بمترجم متخصص

لترجمته، فهو لم يقل كلمة واحدة عن عبد الرحيم الأزرق، أو عن إثبات وجوده كممرض في المصحة أو نفي ذلك، بل كان في كل مرة نطرح فيها عليه سؤالا دقيقا كهذا إلا ويبدأ في الحديث عن قلة الأسرة في المصحات العقلية وأن المصحة لا تتوفر إلا على خمسين سريرا في مدينة تعرفون عدد سكانها وأن...

عاهة مستديمة

قابلنا بعض الممرضين، فقال لنا أحدهم الله أعلم، سمعنا أن ما وقع لعبد الرحيم، ولعله يعاني من عاهة مستديمة، وربما كان ذلك بسبب ما يشاع في المصحة عنا جميعا، وهي إشاعات كل من له لسان يطلقها، فها نحن أمامكم نمارس عملنا بشكل عادي، والناس يخلطون بين المرضى وبين من يعالجونهم، بين الصحيح والمريض، وهم يخلطون بين رئيس دولة ومواطن عادي، فلدينا هنا مريض يحسب نفسه رئيسا لدولة جزر الموز والبطاطا، يزعم أن له جيش ونحن أفراده فنجاريه ونؤدي له التحية العسكرية، وهو يعقد المؤتمرات هنا في المصحة، وينتدب منا من يكون الرئيس جورج والكر بوش، ومن يكونون منا رؤساء دول تقع في كل القارات الخمس، والبارحة أنا كنت رئيس دولة البنغلادتش، لأرفق بحاله وأجبر بخاطره، حتى لا يغضب ويرسل على المصحة صواريخ سام ٧ وسام ١٢، وحتى لا يقطع أيام عطلته في ضيعته التي يربي فيها الضباع كما يقول ليعلن حربا على العالم بعد أن أعلنها عن دولته انفصاليون تسلحوا بالمال الذي جنوه من تجارة المخدرات.

فاس عاصمة علمية

انبرى ممرض آخر ليقول لنا إن هذه العاصمة العلمية، فاس، تضم كثيرا

من العلماء ورجال الدين والمؤقتين والبارعين في الرياضيات و الطب والفلك، ولكنها عاصمة توجد هنا، فمن قبل كان المارستان، في سيدي فرج، وأما اليوم فالعاصمة توجد في مصحة عصرية، يديرها فرنسي خبير بالعلاج النفسي هو الدكتور جاكار، وهذا نوع من الترقي للعاصمة العلمية، وآه ! من مصحة (سيدي فرج) إلى مصحة (سيدي بوجيدة)؟ المغرب كله في تقدم مستمر.

قناة تلفزيونية في المصحة

ابتسم لنا ممرض وقال إن الناس يبالغون، فالمسألة بسيطة، لدينا هنا في هذه المصحة قناة تلفزيونية أحسن من قناة أبيك وأمك، وأجدادك الذين لم يكن لهم تلفزيون. قناة ممتازة، كل برامجها للتسلية، وحتى الثقافة تسلية، ومن لم يعجبه الحال فليضرب رأسه مع الحائط، مديرها معين من قبل وزير الداخلية، وهو مريض هنا، ها هو، تحدثوا معه، شخصية معروفة في الإعلام، شرويط بن شرويط. ثم حدثونا عن شخصية كبيرة في مقام العلم والمعرفة، وهو السي هدي، ودعونا إلى أن نستمع إلى شمس الضحى، فهي مهندسة معمارية مختصة في هندسة المدن، ثم حدثونا عن أهمية شخصية كبيرة توجد في المصحة، وهي شخصية الضابط السابق مصطفى التوالي، ودعونا إلى مقابلة المذيع، مقدم البرامج، الذي لم يذكروا اسمه، ولكنهم وصفوه بأنه يلمع شعره ووجهه دوما مطلي بالمساحيق، وهو لا عنق له، فرأسه توا يستقر على كتفيه، وهو تأتاء فأفاء، مقفقف، قافز، لا يسكت ليسمع، فهو يتكلم مع ضيوفه حتى وهو وحده، وغالبا ما يجري معهم حوارات وهو لا يجري تلك الحوارات إلا مع نفسه، منتج إعلامي عظيم، يمكنكم أن تروه في السهرات

الخصوصية، مع زعماء الأحزاب، وهم لا يتخاصمون في تلك السهرات، بل يتخاصمون أمامنا على شاشة التلفزيون.

مرضية بنت الشعط

لكن الأعظم من هؤلاء، هي مرضية بنت الشعط، عجيبة، ما كانت لتصاب بالحمق لولا الخطة، فصارت تشتم الرجال من أولهم إلى آخرهم، تعترض سبيلهم لكي تشتمهم، وتذهب إلى الندوات لتشتمهم، وتقول إنه مارسوا قهرا تاريخيا على المرأة، من عهود الإماء والجواري إلى عهود السخرة وتحميل الأثقال، إلى عهود جعل جسد المرأة لسلعة تصدر في بلدان هي في حاجة إلى البغايا وما كفاها ما عندها. ثم يصيبها الزهو وتقول إن واقع المرأة قد تغير، رغم أنوفكم، وبعد ذلك تضحك وتقول لنا أعطوني سيجارة.

نعطيها السيجار فتعود إلى غضبها وتشتم الرجال وتاريخ الرجال، ولكي نرفق بها نتظاهر أمامها بأننا نساء، فتصدق تظاهرنا وتعقد معنا مؤتمرا صحفيا يبث التلفزيون وقائعه. مسكينة ينشف من فمها الريق، ولكنها حينما تتعقل، تقول إن إصلاح مدونة الأحوال الشخصية لصالح الأسرة، بما فيها الرجل والمرأة، ثم لا تلبث أن تقول إن إصلاح المدونة هو نضال رجالي ونسائي، وهو خطوة شجاعة في طريق إرساء المرساة، رضي عنها جورج بوش فبعث بتهنئة لجلالة الملك على هذا العمق الاجتماعي للحداثة والتحديث.

بنت الشعط لم تتزوج، ولكنها يمكن أن تقول لكم، وأمام الكاميرا، إنها إكراهات المرحلة، وأعطوها شيئا من الريق لتبلل به ما تحت لسانها، وإلا

فهي ناشفة الريق، عابسة مكشرة، ولقد أعلمناكم، فهي تغضب بسرعة، لأنها تقول إنها تنتقم من الرجال من عهد آدم وإلى اليوم، فخشينا عليكم من أن تنتقم منكم، وانتقامها لا حاجة لوصفه، فهي تفتك بالرجال. ولكن وحتى ومرضية بنت الشعط حمقاء فنحن معها جميعا، نضم أصواتنا إلى صوتها، لكي نسير بالأسرة إلى الأمام.

الإعلامية النحريرة

تقدم نحونا رجل أصلع، يسدل ما تبقى من شعيرات رأسه على كتفيه، وكان ذاهلا فلم نسأله عن شيء ولكنه قال لنا بصوت خفيض، عندنا في البرامج الافتتاح بالسلام الملكي، ونشرة الأخبار التي تبث الأنشطة الملكية، وأنشطة الوزراء وعمال الأقاليم، وبعدها لدينا الضحك، ضحك عصري لا نأتي به من نوادر جحا وعجائب بخلاء الجاحظ ولكننا شكلنا له مدرسة حديثة تجريبية تدرس المُشاهد لتقدم له ما يحتاج إليه من مشاهد مضحكة، حتى يضحك، ولكن لدينا هذه الحمقاء، وفي تلك اللحظة ظهرت امرأة مطلية بالأصباغ، وقال لنا هذه هي الصحفية النحريرة، والإعلامية القديرة، التي تحاور الوزراء حول قضايا الساعة، وأحيانا تحاورهم مع ما يأتون به من جيش جرار من رجال السياسة وكلهم نائمون، وأحيانا تنجح في أن توقظ فيهم الهمم والتواريخ والصراعات السياسية، وهي تتجرأ، في إطار حمايتها بقانون القناة، فتعريهم تعرية لطيفة أمام النظارة، لكنها المسكينة تستضيف أحيانا بعض الخبثاء فيظهرون وكأن لهم أنياب ذئاب ينهشون بها من عداهم من الذئاب. وانظر، فها هو جمهور النظارة.

أرض زرقاء

وسألنا عن عبد الرحيم الأزرق من جديد، فقال لنا رجل كان يقبع في زاوية معنا هنا عبد الرحيم، وهو أزرق، ازرقت شفتاه وازرق وجهه، فقلنا له هل هو قزم، فضحك وقال لنا هو أزرق، أزرق العينين، ويرى الزرقة في كل شيء، هو أزرق القدمين، وكلما خطا خطوة على أرض المصحة إلا ويترك أثرا لها على الأرض، وبلون أزرق. عندما نتبع خطاه لا نجده، ولكن نجد أنفسنا في أرض زرقاء.

رأيت أمامي حشدا هائلا من الناس ينظرون إلى شاشة التلفزيون، ومنهم العراة في إطار تلك التعرية، ومنهم الضاحكون في إطار ذلك الضحك، ومنهم المصابون بالذهان.

أنا وهؤلاء

ولأني أعمل في قناة تلفزيونية، فقد خشيت أن يكون جمهوري هو هذا الجمهور، ومن حيث إن... فالتحولات ... ويمكن أن نكشف عن ... وفي نهاية المطاف فإن ... ولكن يمكن أن ... ومع ذلك ف... وهل علينا أن...

لذلك غادرت المصحة بدون نتيجة، ودون أن أظفر بشيء عن عبد الرحيم الأزرق.

لكن قبل أن أغادرها، نسيت أن أقول لكم إن الدكتور قد برز أمامي وهو يدعوني للإقامة في المصحة، وقال لي تعال ومعك التلفزيون، بمديره ومنتجيه وبرامجه. ليست عندنا أسرة كافية، ولكننا سنقيم لكم خيمة في العراء، وسأبدأ الجلسات معكم، واحدا بعد الآخر.

بدا لي هو الآخر مريضا فقلت له إن شاء الله، سنأتي. وقبل أن أذهب كدت أقول له إنني مفصول من العمل في التلفزيون، لكني أشرت له بإشارة وداع، فأشار إلي والغليون في يده مودعا، وقال أنا في الانتظار.

كاميرا عمياء، وقناة تلفزيونية خاصة بالعميان

في (مقهى زاكورة) الذي يقع ب(حي الأطلس)، قريبا من سكن عبد الرحيم الأزرق، قبلوا بدخولنا إلى المقهى ورفضوا أن تدخل الكاميرا، وقالوا إن احتجنا إلى الكاميرا فعندهم داخل المقهى كاميرات عديدة تصلح للتصوير، بل عندهم قناة تلفزيونية خاصة بالمقهى، وهي قناة تبث برامجها للعميان، ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع.

مقهى أم خمارة أم ناد للقمار؟

سمعنا كثيرا عن المقهى الذي يقع على رأس الزنقة، ويظل سهران حتى ما بعد منتصف الليل، فإضافة إلى رواج المخدرات، فالمقهى يغلق الأبواب والنوافذ في الساعة العاشرة ليلا، ليتحول الموائد إلى طاولات للقمار، والمقهى إلى خمارة يباع فيها النبيذ المهرب في علب الكرطون من سبتة بالكأس، ولا شك أن أجل تداوله قد فات.

دراكولا وصاحب الحنكين الغليظين وسالف الشعر

وسألنا لماذا يختار عبد الرحيم هذا المقهى فانبرى لنا رجل كالمرأة، بحنكين غليظين وسالف مرتخ على كتفيه، بدا أمامنا قويا كهرقل ولكنه كان ضعيفا كريشة في الهواء، هشا كجدار آيل للسقوط، واضطررنا إلى أن نسأله هل هو من الغلمان أو الغلاميات، فاحمرت وجنتاه وبدا كحيل العينين فقال

لنا إنها الظروف، وبحسب الأحوال، وحسب الزبناء. ثم أشار إلى زبون جالس في كرسي، فرأينا أنيابه تقطر دما، وقال لنا هذا هو دراكولا، وحسبنا في الدم الذي يقطر من نابيه خدعة، فلم نر أية ضحية يمتص منها الدم بنابيه ليقطر منهما من جديد، وما كان المنظر مفزعا، فأعرضنا عن دراكولا وسألنا صاحب الحنكين الغليظين وسالف الشعر هل عبد الرحيم الأزرق من الزبناء فقال هم كثيرون، من منهم دراكولا، وبعضهم من الحي وبعضهم يأتون من أحياء أخرى، وكل ما يريدونه موجود، حشيش، خمر، أنا، وضحك ثم غمز فضحك رواد المقهى.

تاريخ المقهى

وقال لنا أحدهم هذا المقهى قديم يرجع إلى أيام الاستعمار، وأشار إلى المصطبة وإلى رسوم ملونة على صفائح من حديد معلقة على الحيطان، وكلها تمثل أنواعا من قوارير الخمور، ثم قال لنا لم يبق شيء من ذلك الزمان في المقهى غير هذه، ولكن بقينا نحن، وأخرج أحدهم سكينا أظهرها أمامنا وقال هذا المكان له حرمته، وقد دخلتموه من غير كاميرا، ولكن إذا قلتم شيئا لا يعجبنا في قناتكم ف ... وأشار بالسكين إلى عنقه بما يعني الذبح. قلنا له نحن نجري تحقيقا حول عبد الرحيم الأزرق، ولا يهمنا شيء من أمر المقهى، فغضب آخر ونهض يصرخ في وجوهنا وقال لماذا لا يهمكم، ألا نهمكم نحن؟ ونحن نهم من؟ ألسنا مغاربة؟ أليس لنا تاريخ هو تاريخ هذا المقهى؟ لكن أحدهم ابتسم لنا وطلب أن تعيد قناتنا عرض أحد المسلسلات.

حديث لالة خيرة

لا يجوز ذلك على ذي عقل، ففكر وأنت تعرف.

هذا ما قالته لنا لالة خيرة الساكنة في الطابق الرابع في نفس العمارة التي يسكنها عبد الرحيم.

قالت:

"رجل لطيف. منظم. يخرج بالوقت ويدخل بالوقت. لن نرخ يستقبل امرأة في بيته، أو يستقبل رفاق السوء. في عيد الأضحى لم ينحر أضحية فأعطيته فخذ الخروف ليشاركنا فرحة العيد".

شارل برانسون

التقينا برجل مخمور يصيح بصوت عال وهو يسمي نفسه شارل برانسون، ثم يتظاهر بأنه يطلق طلقات من رشاش. عندما سألناه عن عبد الرحيم الأزرق قال لنا:

ـ قبل أن أجيب، أعطوني شرابا، قبل أن أجيب.

كسرى أنو شروان يفرح بالصبوح والغبوق

اقتربنا من رجل يرتدي جلبابا أبيض وعلى رأسه طربوش أحمر، يبدو عليه التقوى والورع، فسألناه عن عبد الرحيم الأزرق فقال لنا:

"ما أصابكم فمن أنفسكم. الفساد عم البلاد والعباد، والزرع والنسل والسائمة، وعم الحكام والمحكومين. الأمة تلد ربتها والحفاة العراة يتطاولون في البنيان. عندما تقلد كسرى أنو شروان زمام الحكم في مملكة الأكاسرة عكف على الصبوح والغبوق، فقال له أحد وزرائه إن في ذلك ضررا على الرعية، ورد كسرى على الوزير بأن الطرق آمنة وسيرته في الحكم عادلة والأرزاق متوفرة للرعية، فلماذا لا نغنم من الحاضر لذاته؟".

وعدنا نسأله عن عبد الرحيم الأزرق، فقال:

"أخطأ كسرى في عدة وجوه أحدها أن الإدمان إفراط والإفراط مذموم، والثاني أنه جهل أن دوام النظام لا يوكل به للطرْفِ الساهر، والثالث أن الزمان أعز من أن يبذل في الأكل والشراب والتلذذ والمتع، فكيف إذا كان العمر قصيرا وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا؟".

وذكرناه بسؤالنا عن عبد الرحيم الأزرق، فقال:

ـ حاله كحال كسرى أنو شروان، وقد حسبتكم بنباهتكم تدركون ذلك.

مرشح مدى الدهر للانتخابات

ثم عرَّفنا بعض سكان الحي على رجل قالوا لنا إنه مرشح للانتخابات البلدية، وأطلعونا على صورته في الوسط كبيرة وهي محاطة بصور المرشحين الآخرين ووزعوا علينا عدة أوراق انتخابية مما هو معروف في الحملات ثم أجلسونا في مجلس حسن وسألونا عما نشرب وعما نأكل وقال لنا أحدهم:

ـ لقد وصلتم في الوقت المناسب، وحبذا لو تُجري قناتكم حوارا مع مرشحنا هذا، فهو كما ترون كالواسطة في العِقد وهو رب هؤلاء الذين بهم يريد أن يحصل على عضوية المجلس بكامل أعضائه أو أغلبيته على الأقل.

قلنا له:

ـ نحن لا نذيع في القناة دعاية لمرشح وإنما وزارة الداخلية وزعت حصصا إعلامية للأحزاب لتعبر من خلالها عن برامجها، ونحن جئنا من أجل تحقيق حول عبد الرحيم الأزرق، وفي تلك اللحظة قال لنا أحد سكان الحي:

ـ ها هو عبد الرحيم الأزرق.

وقال آخر:

ـ هو مرشحنا، ومعه من رشحهم.

وهتفوا:

ـ حزبنا واحد، لوننا واحد، ملكنا واحد.

أحاطوا جباههم بخرق ملونة بألوان صفراء أو خضراء أو حمراء، فبدوا كالهنود الحمر، ورقصوا من حولنا وهم يصرخون بنفس الشعار.

بدوا متهيجين فلو ناقشناهم لقتلونا. انتظرنا حتى هدأت أحزوالهم فقلنا لهم:

ـ نحن نسألكم عن واحد من سكان الحي، ممرض في مسنشفى (سيدي بوجيدة) للأمراض العقلية، اسمه عبد الرحيم الأزرق، كان في طول قامته العادي ثم تحول إلى قزم. هل تعرفونه؟ هل سمعتم بالإشاعة؟ ما رأيكم؟

اقترب منا المرشح. وقف أمام الكاميرا. تنحنح. ابتسم، وعدل ياقة قميصه، ثم قال:

ـ من واجبي، وفي برنامج حزبنا الانتخابي، أن ندافع عن حقوق الأقزام، وأن نوفر لهم مطاعم خاصة، ومراقص خاصة بهم، وكذلك الحافلات ووسائل النقل، فضلا عن المدارس والحدائق التي تتوفر على الألعاب. ودخولهم في حزبنا هو الخطوة التي سوف تعيد لهم الكرامة وتحررهم من نظرة الناس الجائرة لهم.

صفق سكان الحي تصفيقات حارة. أضاف المرشح:

ـ أما عبد الرحيم الأزرق فما هو إلا قزم من هؤلاء الأقزام.

أشار إلى حاشيته وأتباعه فضحكوا جميعا. اقترب منا أحدهم، وهمس لنا بأن لديه خبرا عاجلا يريد أن تبثه قناتنا وهو أن المتحدث مرشح أبدي لكل الانتخابات، وهو يفوز دائما، وفي هذه الانتخابات، سيكون هو الفائز. أما الجديد في هذه الدورة الانتخابية فهو اهتمامه بالأقزام واستقطابه لهم ليعطوه أصواتهم في الدورة القادمة.

نظروا نحوي نظرة استغراب، وصاحوا:

ـ قزم. صار قزما.

قال المرشح:

ـ عرفناك مطرودا من القناة. وعرفنا أنك أنت هو القزم.

أخليت الحي بسرعة وأنا أنظر إلى نفسي، لكني رأيت الناس من حولي كلهم أقزام، وما كان حالي يختلف عن حالهم، فقلت:

ـ اللهم لك الحمد، سيف واحد يقطع الرؤوس جميعا.

وقلت وأنا أمشي كالهائم في الطريق:

ـ الشكر لله، فسيف قاطع الرؤوس واحد. صوتنا واحد. رأسنا واحد، لساننا واحد. حزبنا واحد.

الباب الخامس

[باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق بحكايته البسيطة،لكنها تشبه حكاية حكاية تبدأ ب: "كان حتى كان...".]

عمر طويل أطول مما كان ينبغي

تقلص مجال عيشي بين مستشفى الأمراض العقلية والبيت، وما في المستشفى غير المرضى العقليين، والممرضين، والطبيب النفساني المسيو جاكار. أما البيت فقد صار فارغا بعد أن انفض جمع العائلة وذهب كل إلى حال سبيله. مريم بعد الطلاق صار لها عالمها الذي لا أعرفه، وعبد الغني رحل إلى الدار البيضاء، وبديعة مع زوجها شكيب في السعودية. صارت حياتي إلى كل هذا الفراغ الذي لا يمكن أن تملأه قراءة الجرائد أو متابعة برامج قنوات التلفزيون. جلسات المقهى لم يعد لها ما يملأ الفراغ بعد أن رحل الأصحاب وملأها الفراغ والصمت والذهول. مع المرضى أقضي أوقات النهار، أما أوقات الليل فأقضيها مع نفسي، أستعيد سيرة طفولتي وأنا أحدق في الفراغ.

سأم أصبحت أشعر به، حتى إن المسيو جاكار أصبح يخاف علي من أن أكون مصابا بالاكتئاب، الذي يعتبره الخطوة الأولى نحو الانتحار.

طلبت من الله أن يُقصر هذا العمر فيأخذه مأخذ رفق إلى الدار الآخرة، فما بقي لي شيء أفعله هنا في هذه الدنيا.

تزوجت وعشت مع مريم أزيد من الخمسة عشر عاما مضت كلها في الهم والغم والسقام. اتهمتني بما ليس في ولو كان الدكتور جاكار قد سمع تلك التهم لكان قد هب من مكانه واقفا وقال سيرفع عليها دعوى قضائية، فهي تسيء إلى الطب النفسي وإلى سمعة المستشفى، وإلى فرنسا وشارل ديغول وفرانسوا ميتران وجاك شيراك وألان جيبي، إساءة بلغة لتاريخ البلدين

المشترك، فعلى الدولة الفرنسية أن تقيم دعوى قضائية على الدولة المغربية، لوجود مواطنة مغربية تسيء إلى سمعة العلاقة بين البلدين، فيمكن أن تتوتر العلاقة بسبب هذه التهمة الخطيرة التي توجهها المواطنة المغربية لمواطن فرنسي، يحمل في الصحة العمومية، ويشفي المرضى من أمراضهم النفسانية.

ربما كان سيتخلى عن فكرة الدعوة القضائية بعد أن تواتيه فكرة، وهي أن يطلب مني أن أحضرها للمصحة للعلاج، فهي مريضة ولاشك، وعلي أن أساعدها حتى تُشفى.

لكني لم أخبر الدكتور جاكار بما كانت تقوله عن مضاجعتي للنساء المريضات نزيلات المصحة، وأنني أفعل ذلك بأمر من الدكتور نفسه. ثم إنني رجل عادي كباقي عباد الله وهي كانت دائمة الشكوى مني في الفراش، تبالغ في وصف عضو من أعضائي، فكيف يكون عضو لي على تلك الحال وأنا ليس لي به علم؟

خطط للطلاق

كنت أجلس في المقهى، في أوقات الغروب، وبعد أن أغادر المستشفى، شاردا، مكدر الذهن، أرسم خططا للطلاق ثم أعدل عنها، أقيم حوارات مع القاضي وأنا أبرر له رغبتي في الطلاق ثم أكف عن تلك الحوارات وأكتفي بعبارة استحالة المعاشرة، والقاضي فاهم وعليه أن يفهم. ثم كنت أفكر في مصاريف الطلاق، وضرورة مغادرتي للبيت لأكتري شقة أخرى أعيش فيها فيكون علي أن أدفع كل راتبي في كراء بيتين، بكهربائهما ومائهما، كما علي أن أنفق على الولدين بما يقدره القاضي، فلا يبقى لي ما أقتات به وما

أشتري به السجائر، فقد كنت وقتها مدمنا على التدخين، ولذلك كنت أعدل عن فكرة الطلاق.

حدث ذلك بعد الطلاق مباشرة. تحول كل الناس من حولي إلى حالة من التجهم والعبوس، والنفور من أي تجمع سواء أكان عرسا أو جنازة، واختيار العزلة، كل واحد يختار المكان الذي ينعزل فيه، ومن عجب أن بعضهم قد اختاروا المراحيض، لا لقضاء الحاجة، ولكن لقضاء ساعات هناك وقد أغلقوا عليهم الباب وصموا آذانهم عن أي طرق يأتي من الخارج، وبعضهم حبسوا أنفسهم بين الجدران، وبعضهم عاشوا بين الباب والنافذة، الباب لا يخرجون أو يدخلون منه والنافذة وحدها هي منفذهم إلى الخارج، وحتى الأطفال صاروا لا يبكون ولا يضحكون، والناس يبدون ساهمين كأنهم ينتظرون الساعة، وقد فقدوا شهية الطعام والقدرة على العمل والرغبة في السفر، وفي تلك الحالة، كنت أرجح أن حالهم كحالي، يكثرون من الكلام مع أنفسهم، كما كنت أتكلم مع نفسي، وقال الدكتور جار إنه مرض الذهان، لكنه كان يقول ذلك لنفسه أيضا، فإن كان هو الذهان فأكبر مصاب به هو الدكتور جاكار.

مشاهد مؤذية

هل يمكن أن نعتبر مشاهدة التلفزيون هي السبب في ذلك؟

التلفزيون ينقل المشاهد والصور، وليس هو من يصنع الأحداث، وإنما نحن نراها تقع دون أن ندري من هم صانعوها، أو أننا ندري بهم، ولا نقدر على مواجهتهم.

كلما جلس الإنسان في بيته ليتناول طعام الغذاء أو العشاء وفتح جهاز التلفزيون ليعرف الأخبار إلا وعذبته مشاهد الحروب والاغتيالات وأنواع الهجوم التي تمزق اللحم وتحول الجسد إلى أشلاء، ومنهم من أظهر على شاشة التلفزيون بؤبؤ عين على راحة يده وهي عين لقتيل أو شهيد هو أخوه أو أبوه، ومنهم من أخرج شلوا من داخل سيارة ليظهره أمام الكاميرا وكأنه يخرج فخذ خروف من الثلاجة، ومنهم من يشير إلى لحم آدمي معجون وإلى الدبابات القادمة، أو إلى قنابل وهي تنفجر وسط الأطفال.

عندما تبث القنوات التلفزيونية تلك المناظر المؤذية للنفس في أوقات الغذاء والعشاء، يلعق الناس الدم من الإسفلت ومن سطوح المكاتب فيمزجونه بما في أفواههم من طعام، كما صاروا يأكلون من لحوم القتلى ممزوجة مع ما يتناولونه من لحوم، وبعضهم حكى عن تفجيرات هدت بناء كما كان يشاهد على الشاشة، ولكنه وجد فمه مليئا بشظايا الزجاج، وبقطع من لحم آدمي.

فمن يأكل الطعام وهو في القيامة، بين الحرائق وتدمير المباني ونسف البيوت؟

كل الأطعمة صار لها طعم الدم، والناس فقدوا شهيتهم للطعام، وأصبحوا يفضلون أن يواروا وجوههم عن بعضهم، ولو بذلك الاختفاء لساعات في المراحيض، ربما للبكاء أو للحديث مع أنفسهم، ومنهم من كانوا ينظرون إلى السماء ويضحكون، أو يجثون على الأرض وهم يقبلون التراب.

صار وضع الناس خطِرا إلى هذا الحد، فقد أخذت قرارا من تلقاء نفسي، وهو إبعاد جهاز التلفزيون عن قاعة تناول الطعام، حتى لا يرى النزلاء تلك المشاهد، فتحدث لهم مضاعفات قد تكون أشد وأَمَرَّ من تلك التي بدأوا يعانون منها، سيما وقد رأيت بنفسي نزيلا وهو يُخْرِج من بطنه دبابة وهي تحترق، كما رأيت نزيلا آخر يأكل خبزا مغموسا في الدم، ورأيت آخر يحمل بين ذراعيه طفلة جريحة وهو يصرخ أين الإسعاف؟

الآن لا يمكن أن يصدق أحد أن ما يحدث إنما هو يحدث على شاشة التلفزيون، فقد يتجمع النزلاء حول أرض محروقة تظهر عليه بقع دم وأشلاء متناثرة، وهم يصرخون صرخات موجعة، والدكتور جاكار يقول إن الذهان قد تحول إلى عصاب، فهم عصابيون، وسيأمر بالحقن، والحقن نفسها، المعروفة لدينا ولدى النزلاء.

الجيران

لا يمر زمن في حياة الناس دون أن يكون هناك جيران، تساكنا معهم في الطفولة، أو ونحن متزوجون، أو ونحن عزاب أو مطلقون.

هؤلاء الجيران عشت معهم في العمارة الكائنة بحي الأطلس، التي سكنت في إحدى شققها قبل أن أنتقل للإقامة في المصحة، حتى أكون قريبا من المرضى. تحاشيت كثيرا أن أتقابل معهم على أدراج العمارة، لكني كنت أسمع من شققهم ضحكات وشتائم ومكالمات تجرى عبر الهاتف، وما كنت أتجسس عليهم ولكن الصمت الذي كنت أحيا فيه هو ما كان يأتيني بتلك الأصوات ليجعلها قريبة مني، ولقد عجبت لكونهم يمارسون تلك الحياة

العادية حتى مع تلك المناظر المؤذية التي كان يُظهرها التلفزيون، ففي الليل كنت أطفئ ضوء الشقة وأبقى جالسا في الظلام، فكانت الأخبار تأتيني من تلفزيون الجيران، وحتى في الظلام كنت أرى الصور.

سمعتهم مرة، وأنا أتظاهر بأنني غير موجود، يتحدثون على الأدراج عن قزم يسكن إحدى الشقق، ولما خاصمت امرأة زوجها سمعتها تدعو عليه بمصيبة كتلك التي حلت بالجار. قالت له الله يعطيك ما أعطى لجارنا، ترجع قد الصبيع الصغير، ونحطك فوق كف يدي ونتفرج عليك، عنداك تطيح، عنداك تضيح، وما نعرف ما ندير بك، آ ش غدي ندير بك؟

ومرة سمعت أحد الجيران يعظ أولاده وهو يحدثهم عن قوم لوط وما جرى لهم، وعن قوم عاد وثمود وما جرى لهم، وينصحهم بفعل الخير وتجنب الشر لكي لا يقع لهم ما وقع للجار الذي يسكن في العمارة، وقد جعله الله قزما، فما كان ذلك إلا من غضب الله عليه.

أختي ربيعة

ضقت من حبس النفس في الشقة، ومرة زاغت بي قدمي فقلت أزور أختي ربيعة لأدفع عني ما أشعر به من قنوط وضيق وعزلة، فمشيت مسافة الطريق متجنبا ركوب الحافلة، وأنا أقول لنفسي كم هو بعيد (حي الدكارات)، ولكني وجدت العذر لأختي وهي تقيم فيه، فهي لم تتزوج، وعملها في إدارة الضرائب يتعبها، ولذلك فهي تخفي وجهها عن الناس في تلك الشقة بحي الموظفين، التي اشترتها بالأقساط الشهرية، حتى لا يطرق باب بيتها طالب أجر.

تصبب عرق بارد من جبيني وأصابني دوار خفيف. دخلت بوابة العمارة وصعدت الأدراج. تصادف صعودي مع هبوط ثلاثة أو أربعة من الأطفال، وبمجرد ما رأوني توقفوا لحظة عن النزول فتوقفت عن الصعود، ولكنهم قذفوا بأجسادهم فوق جسدي وأخذوا يتشبثون بحاجز السلم، فتدحرجت على الأدراج، وتكومت في جانب وقد أغمضت عيني حتى لا أرى ما أنا فيه، فلما بقيت هناك سمعت الأطفال يضحكون وصوت أختي ربيعة وهي تنهرهم على كثرة الضجيج في الأدراج، فالواحد لا ينام في القيلولة مع صخب الأطفال في أدراج هذه العمارة.

لكن الأطفال اقتربوا مني فقلت لهم أنا أخ ربيعة، فعادوا يصعدون الأدراج وسمعتهم يطرقون باب شقتها، وقالوا لها القزم هو أخوك، فنزلت، ورأتني، ورأيتها، ثم رفعت يديها في الفراغ وعادت إلى شقتها وأغلقت عليها الباب.

سمعت لغطا من حولي ونساء ينبهن أولادهن إلى التأخر عن وقت المدرسة، والأولاد يقولون عندنا قزم في الأدراج يقول هو أخ ربيعة، والنساء يأتين إلي متعجبات، وسبحان الله، ومالك يا أخي، وتعال، وهل تشعر بألم، وبعضهن يطرقن باب أختي ربيعة طرقا شديدا وهي لا تفتح، وبعد اشتداد الطرق فتحت الباب، وقالت لهن ليس لي أخ قزم، ولكن مسكين إذا حسب أنه أخي فقد أراد الله لي ألا أرتاح في هذه القيلولة من تعب العمل، ونزلت، فنظرت إليها ونظرت إلي، وساعدتني على الصعود حتى دخلت شقتها فأجلستني على الفراش وجلست أمامي وقالت:

. هل انكسر فيك عظم؟

قلت:

. هل عرفتني؟ أنا عبد الرحيم أخوك.

نظرت إلي باستغراب وقالت:

.كلنا إخوة في الملة والدين. ولكن أنت سببت لي فضيحة مع الجيران.

قلت:

. ألا تحبين أن أزورك؟

قالت:

. ولماذا تزورني ؟

قلت:

. أنا عبد الرحيم أخوك.

قالت:

. ولكن ليس لي أخ ...

قلت:

. والدنا هو السي قاسم الذي كان جزارا في حي الصاغة، وأنا... مريم تسلم عليك. . . وبديعة كبرت وتزوجت. و ...

أطرقت برأسها ولم تقل شيئا، وبدت لي شقتها موحشة باردة، كما بدا

لي وجهها وقد نضب منه ماء الرواء فتغضن وصارت أقرب إلى عجوز من أولائك العجائز الماكرات اللواتي نراهن في أفلام الرعب، فأصابني الخوف، وقلت لها:

. سأذهب، ولكن أرجو أن تساعديني على الذهاب.

قالت:

. ماذا علي أن أفعل؟

قلت:

. لا أريد وقت هبوطي الأدراج أن يكون هناك أطفال يصعدون.

مرأى فاس

كبرت فاس في عيني، ورأيت الصوامع كأنها تقترب من بعضها وأصوات المؤذنين تختلط وتتداخل فما عاد في فاس غير صوت واحد هو صوت الأذان.

ثم رأيتها في عصور وحقب وتجولت في أحيائها وبساتينها ودروبها حتى وصلت إلى (دار الباشا بلبغدادي) فسمعت صراخ المعذَّبين والسياط تلهب ضلوعهم، ومشيت حتى وصلت إلى باب المحروق، ثم نزلت حتى وجدت نفسي في سيدي فرج، وهو مارستان قديم كان المخزن يتخلص من الثائرين عليه من علماء القرويين بالرمي بهم في غرفة مظلمة من غرفه حتى ينسوا أنفسهم وينساهم الناس.

رأيت أعضاء جوق للطرب الأندلسي قادمين ليشنفوا أسماع المرضى في

مستشفى (سيدي فرج) بتواش من طرب الآلة، ومنهم من كان يحمل طرًّا أو عودا أو كمنجة، فعلمت أن ذلك الزمان قد مضى وفيه كان نزلاء المارستان يحظون بعناية في العلاج بالموسيقى وفي الطعام والنظافة، وأما اليوم فقد صار مكانا وسخا يقيد فيه الحمقى بالسلاسل الثقيلة المثبتة أطرافها في الأرض، وهم يفعلون كل شيء من حولهم، يكثر صراخهم بالليل والنهار، وقد طالت شعورهم وأظافرهم فأصبحوا يفزعون كل من يأتي لزيارتهم، وتوقفت الزيارات، وما عاد من أحد يسهر على راحة النزلاء غير رجل يأتي مرة في اليوم ليرمي لكل واحد منهم بما يبقي على أوده من الطعام، وهو يرمي به خوفا من أن تصل يدا أحدهم إلى عنقه فيخنقه بهما حتى وهما مغلولتان، فقد كان يرى الحقد في عيونهم ويسمع الشتائم التي يكيلون له، ولم يكن المخزن وحده يرسل العلماء ومن أعدائه، بل كانت المرأة إذا رغب زوجها في الزواج من امرأة أخرى فبدت غير راضية تهدده بأنها سوف ترسل به إلى سيدي فرج، أي أنها ستفعل كل ما يؤدي به إلى الحمق.

مقارنة مع المصحة التي أعمل بها فقد تأخر الوقت عما كان يوم كان الجوق يعزف للمرضى، ولكنه تقدم أيضا فلنا مراحيض ونحن لا نكبل أيدي أو أرجل النزلاء بسلاسل ولكننا نكبلهم بحقنات المورفين.

وجع الذاكرة

كل إنسان يقيس طوله ويعرفه بحكم العادة، فهو مثلا يعرف متى يحني رأسه عند الدخول من باب إن كان الباب واطئا ومتى لا يحتاج إلى ذلك، كما أنه يشعر بنتوء شعرة في الحاجب فيقصها ويرتاح، فما بالك بألم ضرس أو خفقان القلب أو الحمى، فالإنسان يشعر بجسده، فكيف بي لا أشعر

وقد أصبح الناس يتحدثون عني كما لو كنت قزما، أو هم يرونني قزما، فلا أدري من أين جاءتهم هذه الفكرة، أمن عندهم أم من حلم مزعج رأوني فيه أتحول إلى قزم فخافوا على أنفسهم من أن يصبحوا أقزاما.

ولكن، أليس هذا احتقارا؟ أليس هذا استصغارا؟ ذاكرتي وهي تستحضر ما عشت وما سمعت وما حلمت به توجعني.

الرجل المسمار

حلمت أن قامتي قصرت على ذلك النحو المذهل، فعدت إلى جسدي أعيش داخله بعد أن كنت أعيش خارجه، ولم يعد يهمني أكانت السراويل طويلة أم قصيرة، وهل من القميص تدخله اليد فتبدو ملفوفة فيه، وهل الحذاء نفسه مثل زورق لا يمكن أن تلبسه القدم، ولذلك عدت إلى طفولتي الأولى فوجدت ملابس تلك المرحلة واسعة فضفاضة والسراويل طويلة فأخذت أقص منها بمقص وأعيد خياطة حواشيها.

كانت القامات تطول أحيانا، على قصر أصحابها، كما كانت تقصر على طول أصحابها، فالطول والقصر ليسا بمقياس و إن كان لابد من المقياس فهو للمسمار، ولكن أن يعيرني رجل بأنني مسمار، وهو نعت يختص به البخلاء، ليعني به شيئا آخر هو قصر قامتي، فهذا هو منتهى السفالة التي يمكن أن يصل إليها إنسان.

جسد طائر

في ذلك الحلم تراءت لي الزهور مقطوفة للتو من الحدائق ولكنها مبعثرة على الأرض، وأقدام همجية ترفسها. كنت سأسرع إلى حقنة المورفين ولكني

لم أر من قطفها ولا من بعثرها ولا من رفسها بقدميه، وما كان من عادة أحد من أقارب النزلاء أن يأتوهم بالورد، ولكني رأيت الورود تقطفها يد وتزيل عنها الأشواك ويد أخرى تبعثرها على الأرض وقدم تدوسها. لماذا؟ الورد يُشم عادة ويُهدى في المناسبات وتفرح العين بالنظر إليه، فلماذا هذا الاعتداء على الورد؟

ظهرت أمامي امرأة متعالية، تنظر بِعُجْبٍ وتسير بخيلاء، ثم انحنت فحملت من الأرض وردة داستها الأقدام، وقدمتها إلي، فأخذتها منها مفترضا أن من يهدي الورد للآخرين لا يمكن أن يكون هو نفسه من يدوسه على الأرض. وابتسمت لي المرأة فابتسمت لها، ومشينا وهي تنحني علي وأنا أحاول أن أعلو لأصل إليها، فكأني كنت أتسلقها، وقبلتني في انحنائها على خدي، ولكن كانت كجبل من الشحم، وشفتاها في التقبيل كصفعات من غليظة ما خلقها الله إلا للصفع، ولكني تحملت، ثم صارت يدها دافئة وهي تمسك بيدي، وبعد حين انحنت علي، فتهاويت على الأرض، وتعرت لي فبدا نهداها من فوقي كجبلين من لحم، وتأوهت، وتلذذت بلمس ملمسها الناعم، ثم كدت أشخر وأنام، لكني واتتني الفرصة، فأخذت أضغط على جسدي وهو يحمل جسدها إلى أعلى، وجسدها ملتصق بجسدي، وجسدي يعلو وجسدها يعلو، ونحن معا نعلو، حتى صار جسدي الصغير طائرا ولكنه يحمل من فوقه جسدا ثقيلا يطير معه، حتى استنفذت طاقتي في ذلك الطيران، فرقع جسدانا فجأة فوق تلك الورود التي كانت قد داستها الأقدام، فلم نشعر بأذى، لكن ضحكاتها صمت أذني، ومنذ ذلك اليوم، وحتى وقد رأيت ذلك في المنام، وأنا أصم.

لعبة شد الحبل

حلم قصير حلمته تدور أحداثه في زنزانة، وأول ما بدا لي هو الكوة الصغيرة التي يدخل منها الضوء، فكنت أراها مرة وأنا في الداخل وأخرى وأنا في الخارج.

في الداخل كان هناك جلاد، وفي الخارج كان هناك ضحية، وكانت المشكلة، هي كيف يدخل الضحية وكيف يخرج الجلاد، بل المشكلة هي كيف يتواجهان، ليمارس الجلاد دور الجلاد والضحية دور الضحية، والحقيقة أن كل واحد منهما كان يخاف من ممارسة دوره، وربما يرغب في ممارسة دور الآخر.

فجأة انفتح الباب فالتقى الجلاد مع الضحية، وخفت أنا مما سوف يحدث، لكنهما في لحظة اللقاء، قررا أن يبدآ لعبة جديدة وهي لعبة شد الحبل، فسلم أحدهما طرف الحبل إلى الآخر، وجذبه بينما أمسك به الآخر، وظلا يجذبان كل من جهته، والنتيجة أن الجلاد بقي في مكانه، والضحية أمضى وقتا طويلا في الدفاع عن وضعه كضحية، ثم جاء من أعلن نهاية المقابلة بالتعادل.

صرخت. قلت نهاية جائرة. لم يكن هناك تعادل، بل انتصار للضحية، وأحسست يد مريم تهز ذراعي وتقول لي بل انتصر الجلاد، أيها الجلاد.

أيام بيضاء

مرة تساقط الثلج ندفا بيضاء فغطى مدينة فاس وغطى سطح البيت وطريق المدرسة الذي كنت أسلكه بالبياض. تصوروا أن الوالد كان يربي

ديكا في خُمٍّ في سطح البيت، وكان عرفه أحمر وذيله ملون كما ريشه ملون، ولكن الديك صار أبيض، ولم يعد يهاجم، بل وقف على تلك العصا التي تعود أن يقف عليها وهو نائم، وقوف محارب قدم، فلكي أنقذه من التجمد فتحت باب الخم وأمسكت به وهو مستسلم كأنه يعرف أنني جئت لأساعده، فأنزلته إلى مكان في البيت فيه دفء فأخذ ينفض جناحيه.

عجبا، فهو نفس الديك الذي كان والدي إذا ما أدخل يده إلى الخم فالديك بمنقاره يقضم ويقطع، فيجرح يد الوالد، وكم قالت له الوالدة اذبحه فكان لا يريد.

ليس الديك هو ما صار أبيض في تلك الأيام، بل الصوامع، وأخطر ما فيها أن المؤذنين كفوا عن الأذان.

وليست الصوامع وحدها، بل جلابيب كانت حمراء أو صفراء أو سوداء يرتديها أناس فأصبحت بيضاء.

وليس الديك أو الصوامع أو الجلابيب، بل إن علم الوطن، الأحمر الذي تتوسطه نجمة خماسية خضراء، قد ابيض، كما ابيض الشرطي الواقف في وسط الميدان لتسيير حركة السير، وابيضت الإدارات والبنوك، وسمعت الناس يقولون ليتها القلوب تبيض، فهي سوداء، والثلج لا يبيض القلوب.

شجرة وحيدة

رأيتها تبنت وحدها في الفراغ، دون سقيا أو مطر، لكنها تدل من ضاع في الصحراء على أن طريقه من هنا أو من هناك، وحيث هي التي تصنع له الجهة بعد أن كان قد فقدها.

ثم ها هو البحر يظهر وبواخر لنقل البترول تسير في عرضه وكأنها لا تسير من فرط ثقل حركة سيرها، ومع ذلك فالبحر يظهر في الصحراء، ولا بوصلة للجهات غير تلك الشجرة التي تنبت وحدها في الفراغ.

في الجحيم

كم من مرة رأت عيناي ذلك المشهد الذي كان جسدي يدخل فيه النار فيحرق ويصير رمادا ثم يبعث من جديد ليرمى به في النار ليعذب بحرق جديد؟

بين حرق وأخر كنت آكل ولا أبالي، وإن كنت أعرف أن ما آكله هو مزيج من البارود والشظايا ونثار القنابل، ولكن ذلك الذي يفتح لي باب الجحيم يكل أو يمل، أو يشعر أته هو نفسه سوف يحرق معنا ذات في ذلك الجحيم، بل كان يفتح الباب وهو يغني، أو يشرب من برادة ماء ليطفئ عطشه بينما حلوقنا تجف من العطش، ولما كنا قد تعودنا على منظره، كما تعود هو الآخر على وجوهنا وصرخاتنا، فقد تآلفنا وأصبحنا نحن وإياه أصدقاء، هو يفتح لنا الباب فندخل، وهو يعود فيفتح الباب ويُخرج رمادنا فنُسوى كما كنا ونحييه أو نمازحه ببعض الكلمات، وأما ما كنا نراه فقد كان رؤية للرماد.

شمس الضحى

اسمها شمس، أو شمس الضحى، وهي نفسها تلك المرأة التي كانت قد ضغطت على روحي من فرط ضغط جسدها السمين على جسدي فما تخلصت منها إلا وقد أصبحت جسدا طائرا.

هي نفسها جاءت هذه المرة من غير أن ترفس الورد بقدميها ولا أن تحمله من الأرض لتهديه إلي، ولكنها في هذه المرة جاءت في مدينة خراب، أو هي مدينة في طور التشكل، ولم تأخذ أي شكل بعد، فمواد البناء مبعثرة على الأرض، وشاحنات تحمل الحديد والحجر تثير من خلفها الغبار، وعمال بناء يخفون رؤوسهم في أكياس الإسمنت الفارغة وقد صنعوا منها ما يشبه القبعات، والطرقات مليئة بسوائل ملونة هي خليط من إسمنت وصباغة وجبس ومواد للتبليط، ولم تجد شمس الضحى مكانا تأخذني إليه ما عدا هذه المدينة الغريبة، التي ربما هي مدينة للمستقبل، فأخذنا نتجول بين الفيلات والعمارات التي هي في طور الإنجاز، وكان كلما مررنا ببنائين إلا وحيتهم وحيوها، وابتسمت لهم فابتسموا لها، فلما سألتها عن سر معرفتها بهم قالت لي أنا المهندسة المعمارية، ونحن في طريقنا الآن لأطلعك على مشروع المصحة العقلية، لدي في الموقع التصاميم، وحالما ينتهي البناء سيدشنها وزير الصحة العمومية، ومع المحسن الخليجي الذي تبرع بنفقات المشروع.

خاصرتني وهي تنحني تبحث عن خصري، وقبلتني فشممت من فمها رائحة الثوم، ولما تضايقت فكرت في أن أصبح جسدا طائرا لكني رغبت في أن أرى المصحة العقلية التي في طور البناء، حتى أعقد مقارنة جديدة لها مع سيدي فرج وحيث كان المارستان القديم، ومع (مستشفى سيدي بوجيدة) العصرية، ووجدت مناسبة لكي أغلق فم الدكتور جاكار وهو يتحدث عن قلة عدد الأسرة، وقلة عدد الممرضين، وتضاعف عدد المرضى كل يوم، فما سأغلق به فمه هو حجرة من أحجار بناء المصحة الجديدة، في المدينة الجديدة، في الأرض الجديدة التي هي أرضنا جميعا، ووجدت ما أتبجح به

عليه من معرفة بأشياء هامة تتعلق بسياسة الوزراء وبرامجهم والتدشينات التي يقومون بها، وبالحديث عن المهندسة المعمارية بانية المدن، والمصحات العقلية بما يدهش الجميع، فقد خصصت مصحة عقلية لكل مواطن، فعليك آ الدكتور جاكار أن تدخل سوق رأسك وإياك أن تظن أن المغرب سيبقى متخلفا إلى الأبد، فحالما أعرفك على السيدة شمس الضحى، بانية المدن، والمصحات العقلية، فتكتشف أنك أمام مغرب جديد، مغرب العقل، والنباهة، وكثرة الأسرة، وكثرة الممرضين، فكلما تضاعف عدد المرضى مرة أو مرتين إلا وتضاعف عدد الأسرة مرات ومرات، تعرف لماذا؟ هذا سر أخبرتني به شمس الضحى، لكي تستخدم تلك الأسرة للراحة، كما هو الحال في الفنادق، أليست قيمة السياحة في بلد من البلدان تعد بعدد ما يتوفر عليه من الأسرة؟ إذن، يا دكتور، فقيمة الصحة تعد في ميداننا، بعدد ما نتوفر عليه من الأسرة، حتى وإن اتسعت فصار السرير الواحد ينام فيه عشرة، ولا تصدق يا دكتور، فهم لا ينامون، ينامون تحت الأشجار، وفي كل مكان.

دجاجة أم رخ أم نعامة

ضحكت.

أنا ضحكت، فأحدهم قال لي وهو يضحك إنه باض بيضة، وقال إنه لم يتعود على أن يبيض كما تبيض الدواجن، ولذلك فقد سقطت منه البيضة وانكسرت قشرتها، وقال إن جميع النزلاء في صباح هذا اليوم قد أصبحوا وهم يبيضون كالدجاج، ثم قال لي:

ـ أنت آ السي عبد الرحيم ألا تبيض مثلنا؟ لا يمكن أن تخرج عن الجماعة، فأنت واحد منا.

قلت له:

ـ هل يُعقل أن يبيض إنسان كما يبيض الدجاج؟

قال لي:

ـ وهل يُعقل أن يبيض الدجاج؟

قلت له:

ـ من المعقول أن يبيض الدجاج، وليس من المعقول أن يبيض الإنسان.

قال:

ـ لكن الحيات تبيض، والسلاحف تبيض، والنعام يبيض، وطائر الرخ يبيض، فلماذا لا يبيض الإنسان؟

قلت له:

ـ سأجيبك في الغد.

قال:

ـ أنت تتهرب من الجواب، ويبدو أنك لم تصدق أن النزلاء قد أصبحوا في صباح هذا اليوم وهم يبيضون. إذا لم تصدق فهات سلة لتجمع فيها البيض.

ثم قال لي:

. آ السي عبد الرحيم، عليك أن تفهم، وإن لم تفهم فسوف أحقنك بحقنة المورفين، أو سأخضعك للصعق بالكهرباء.

ضحكت وقلت له:

. أنت!

قال:

. أنا.

قلت له:

. أنا الممرض وأنت المريض.

قال:

. والممرض ألا يصبح مريضا؟

قلت له:

. يصبح، إذا أصابه المرض.

ضحك وقال لي:

. آ السي عبد الرحيم، أنا شفيت، وأنت أصابك المرض.

قلت له:

. شفانا الله أنا وإياك، وكل إخواننا المرضى في هذا المستشفى.

عودة إلى أيام الشباب

ندمت على معرفتهم وعلى اليوم الذي أصبحت فيه ممرضا لمرضى هم على أتم الاستعداد للقتل في أية لحظة، لكنهم في نفس اللحظة يبكون ويتحسرون على ألا سكاكين لهم ليطعنوا بها، ويحزنون كثيرا وهم يستعيدون ماضيهم الممزق، وحياتهم التي تتساقط كأوراق الخريف، فتنهمر دموعهم ليستدروا العاطفة، وبعد ذلك يضحكون على أنفسهم وعلى الآخرين، ولذلك كنت لا أندم على معرفتهم، وأقول إن صبري قليل فلو كنت صبورا معهم وهم يعودون إلى أيام شبابهم، وكل واحد منهم يحكي حكايات وذكريات، لكنت قد عشت شبابي في شبابهم، فأغلبهم أقران لي، وقد عاشوا نفس المرحلة.

ميراي

في أوقات الفراغ التي كانت تملأ كل ليلي ونهاري بدأت أسترجع حياتي، ولما كان فراشي هو فراش للوحدة، فقد تذكرت أيام الشباب وحضرت أمامي ميراي، اليهودية الجميلة، الفاتنة التي فتنتني، عشقتها فما فرقت بيننا غير السياسة، ولولا حرب يونيه التي شحنتها بالعداء ضد العرب، لكانت حياتي قد تغيرت، ولكنت أعيش في باريس حياة أخرى، ولكانت ميراي معي الآن، لكنها أحبتني قبل تلك الحرب، وكرهتني بعدها فأحسست بالخيبة مرتين، مرة لأن إسرائيل احتلت مزيدا من الأراضي العربية، ومرة لأني فقدت ميراي.

هي التي كانت تقول لي ما ذنبنا وقد خلقنا أنا يهودية وأنت مسلم، أصبحت تشتم جنس العرب وتفخر بقوة إسرائيل.

إحساسي بالخسارة هو الذي قادني إلى مريم، فأحسست أن حياتي كانت منذورة لحرف الميم، ميم ميراي وميم مريم.

عبد الرحيم الأزرق عاصر ثلاثة ملوك

واتتني فكرة، وهي أنني أنا عبد الرحيم الأزرق، عاصرت ثلاثة ملوك، وفكرت في الأمر مليا، فوجدت أن المسألة تستحق التأمل، ففي طفولتي عشت أيام نفي الملك مُحَمَّد الخامس مع أسرته الشريفة إلى جزيرة كرسيكا، ولقد رأيته في القمر كما رآه جميع المغاربة، وبكيته يوم وفاته كما بكاه كل الناس، وهم يرددون تلك الأغنية الجارحة لنياط القلوب:

آ ويوم عشرة في رمضان

يا الإخوان

يوم عشرة في رمضان يا الإخوان

شي يبكي وينوح

وشي هايم وولهان

مع ترديدها كانت الدموع تملأ كل الأرض فتصنع أنهارا.

ثم جاءنا التلفزيون ليبث صوره لأول مرة مع بداية الستينات، فلم نعد نرى الملك وهو يزور مدينتنا فنخرج لتحيته وهو على صهوة فرسه والأرض مفروشة بالرمل، والناس يطلون من سطوح المنازل لتحيته والهتاف بحياته، بل صرنا نرى ملكنا على شاشة التلفزيون وهو يزور كل المدن والقرى، والتلفزيون نفسه هو الذي نقل لنا أخبار الانقلاب على الملك، مرة وأخرى،

مرة في حادثة الصخيرات، وأخرى في حادثة مطار الرباط ـ سلا، ولكن صوت الملك الذي جاء مع صورته على شاشة التلفزيون كان مطمئنا لنفسه ولنا، فقد كنا سنقع في حفرة ولكن الله سلم.

معلوم أن الله هو الذي سلم، وهو صانع هذه التواريخ، وإلا لكان عرش المملكة في خبر كان، ولما كنت أنا قد عاصرت غير ملكين، أولهما نفته فرنسا إلى مدغشقر ثم عاد إلى عرشه والثاني لا قدر الله هو الذي كاد أن يقع في الحفرة. لكن الله أطال في عمري حتى عاصرت ملك الحداثة، الشاب الهمام، المحب للفقراء والمعاقين، الطيب القلب.

قلت لكم إنني قد صرت أحب أن أضاحك الناس وأضحك معهم فلا أجد غير عابس ومكشر، وكأنهم يكيلون لي بذلك المكيال الذي كنت أكيل به يوم كنت لا أميل إلى سخافات ضحك مجاني أو تنكيت خليع أو سخافات أقابلها عادة بالتكشير الذي يعيد الجدية للموقع ويعيد لي الحزم في النظر والموقف واتخاذ القرار.

أنا ممرض لأناس غير عاديين، ولذلك يجب أن أكون جادا كل الجد، فلا أستسلم إلى الهراء والسخف والتفاهة.

انقلب الأمر إلى وضع آخر، فها أنا اليوم أسخر من عمري الجميل، الذي طال واستطال، حتى عاصرت خلاله ثلاثة ملوك.

عبد الرحيم الأزرق يعشق الأميرة

والدي كان جزارا، فكيف يمكن لابن جزار أن يعشق الأميرة الجليلة ابنة الملك المفدى صاحب الصولة والصولجان؟

أخبركم من الآن بأنني بذلك العشق، ومن جانبي وحدي، لم أكن أسعى إلى نيل منصب أو حصول على جاه. فقد كنت أعرف أنني قزم أمام الأميرة، وهي نفسها سوف تسخر من عشقي لها، ولن تقبل حتى بأن تهديني ابتسامة إشفاق.

أعرف كل هذا وأؤكده لكم، ولكن أليس من حق مواطن تربى على المواطنة، وحب الوطن وحب الملك، أن يعشق الأميرة؟

من يقول منكم إنه ليس حبا متكافئا فهو لا يدري لوعة العشق، وعذاب الأرق، ورؤيتها في المنام، والحديث معها، والإمساك بيدها الطاهرة كما يمسك الواحد بيد ملاك سماوي. فأنتم أناس خشنو الطباع، تحسبون العواطف بحسابات المال وبحسابات أخرى تسمونها توافقا في المكانة الاجتماعية، فأنتم زائفون، لا يمكن لأحدكم أن يشعر بأنني أطير، وأدخل القصر الملكي، فأسير في الحدائق، مرة معتدا بنفسي ومرة خائفا من الحراس، فاقترب مسترشدا بنورها الملكي، حتى أطل من نافذة القصر فأراها، وأبكي فأعود وأنا أفكر في حيلة للخروج، فقد ظفرت بالمطلوب وهو أن أراها، ولقد رأيتها.

صورتها كانت معي على الدوام، تحت الوسادة مبللة بالدمع، دمعي الحائر في عينيها الملائكيتين، وأنا أتخيلها في المنفى، مع والدها الملك، والصورة لم تكن لها وحدها بل للأسرة المالكة، يتوسطها جلالته، يحيط به الأميران الجليلان، والأميرتان الجليلتان، وهي، نوارة قلبي ومرتع أحلامي، فكنت أعتب على نفسي لماذا أنا في الوطن وهي في المنفى، وكنت أحب أن

أكون معها في ذلك المنفى، ولكن فرنسا لا تعرفني حتى تنفيني، والملك المفدى نفسه لا يعرفني، لكني أعرفه وأعرف الأميرة الجليلة، بل أراها في المنام، وأقبل أعتابها الشريفة.

كنت أحييها وهي في الصورة براية المغرب وهي ترفرف في يدي، ولما كانت الوالدة تباغتني وأنا أنظر إلى الصورة وفي يدي راية الوطن فقد كانت تجلس بجواري على حافة الفراش وتبكي، وتقول ولدي عبد الرحيم ذهب عقله، ولكنه وطني، وتواسيني وتقول لي كفاك يا وليدي فقد خرج عقلك. وعقلي لم يطر إلا وهو مع الأسرة المالكة في المنفى، ولكنه طار مع رجوع الملك إلى عرشه ورجوعها إلى أرض الوطن.

كتبت لها رسائل لم أبعثها. كنت أجعلها تنام بين رموشي فلا أنام وأنا أرى طيفها وأراها تبتسم لي.

معطفها الشتائي الرمادي، وشعرها المسدل على الكتفين، ونظرتها، والوطن كله، كل ذلك كان يهز روحي ويلهب جسدي بالحمى ويجعلني لا أرى غير ابتسامتها لي ووجهها يظهر في الفراغ، فكنت أهذي بكلمات الحب التي لا تسمعها غير أمي، وأنا أنظر إلى الفراغ وفيه أرى الأميرة الجليلة وهي تظهر أمامي في الفراغ.

غضب والدي الجزار السي قاسم من تصرفاتي، واهتدى إلى حل، وهو أن يرسلني إلى المارستان، سيدى بوجيدة، فذلك أفضل من أن يأتي من رجال المخزن من يأخذونني إليه، وأن يفعل ذلك بنفسه فهو أهون من أن يراهم يطوقون يدي بالسلاسل ويرمون بي في الظلام.

كان يصيبه الغيظ من حالي فيقول لي:

. ما بقا لنا سوى قصر الملك.

ثم يضرب كفا بكف ويقول وهو يتنهد:

. آ عبد الرحيم هل جننت؟ ضاع عقلك منذ أن بدأت تفكر في الأميرة وتحلم بها بالليل والنهار.

يتنهد ويقول لي:

. لست سوى آ جزار يا ولدي. هل يمكن لجزار أن يصبح صهرا للملك؟ اترك عنك جنونك وعد إلى صوابك.

بعد سنوات من ذلك، شفيت واستأنفت دراستي إلى أن وظفت ممرضا في مستشفى الأمراض العقلية ب(سيدي بوجيدة)، وهناك بدأت قصتي مع ميراي.

ميراي تعشق عبد الرحيم الأزرق

كانت ميراي تخرج من حقيبتها طاقية أخيها عزرا وتضعها فوق رأسي، وأنا مستسلم، وكانت تفعل ذلك ونحن عند السور، قريبا من باب المقبرة اليهودية، ثم عندما ندخلها تُجْلسني على قبر، وتقبل فمي، فأذوق من فمها الحلو، وتداعب خصلة من شعري كانت ترقص عادة على جبيني تسويها ثم تعيدها مبعثرة الشعيرات لتسويها من جديد. كانت عيناها العسليتان تنظران إلى عيني، وكانت تبدو والهة وأنا واله بالنظر إليها، وكانت تدخل في حناياي وهي تنظر جهة القبور خوفا من أن يأتي حارس المقبرة، وتبكي، وتقول:

. لماذا؟ لماذا يا عبد الرحيم؟

ثم تنظر إلي وتقول لي:

. حبيبي، إن عرف أبي أنني أحبك وأنت مسلم فسيقتلني، أو سيرسلني إلى إسرائيل إن وجد لذلك طريقة.

كنت أقول لها:

. يا حبيبتي يا ميراي وأنا لا يمكن أن أجعلك تدخلين دارنا وتأكلين معنا الكسكس أو تشاركيننا في لحم العيد الكبير، أو تصومين معنا رمضان وترين هلال العيد وهو يظهر في السماء كما نراه من سطح المنزل، وترين أمي وأريك ذلك القفص الذي أربي فيه طائرا مغنيا.

تتنهد، وتقول:

. انس ذلك يا عبد الرحيم. فأنا أيضا لا أستطيع أن أدخلك إلى دارنا في الملاح لتشاركنا في أعياد البيساح والكيبور وعيد الدجاجة وعيد الرقاقة. انس.

أقول لها:

. لقد نسيت.

تقول:

. أريد اليوم أن أنام في حضنك، وفي فراشك. أتخيل بيتكم. هل لديكم نافذة يمكن أن أرى منها القمر والسماء وأنا نشوى بحبك؟

أقول لها:

ـ حبيبتي ميراي. يمكن أن نتزوج ونعيش حب العمر كله إذا وجدنا طريقة.

تقول لي متلهفة:

ـ ما هي؟ نهرب؟

وأقول لها :

ـ نهرب إلى باريس. ولكن علينا أن نخطط بسرية عن أهلك، وعن أهلي.

يزداد تلهفها وتتطلع عيناها إلي وتقول:

ـ حبيبي. كيف سنخطط؟

أقول لها:

ـ علينا أن نحصل على جوازات السفر، وأما المال الذي يكفي لسفرنا فأنا أتدبره.

وتغيم عيناها، وتبدو كطائر محلق في الفراغ، فآخذها وأُجلسها فوق ركبتي، وأنحني عليها بالقبل وأنا أمسكها بذراعي وهي تتحلل وتكاد تتهاوى، وأنا أسبح في سماء الله التي جاءت بكل الأديان.

ثم تستقر نظراتها ويعود إليها شيء من رشدها فتقول لي:

ـ حبيبي. ماذا كان الله سيخسر لو أنه خلقنا نحن البشر جميعا على دين واحد؟

أنظر إلى قرار عينيها، فهذا السؤال لم يخطر على بالي. ولكن يخطر على بالي سؤال:

ـ حبيبتي. لماذا لا تتعايش الديانات، وتتصالح؟

ضحكت، وقالت:

ـ هذا أمر غير ممكن.

قلت:

ـ لماذا؟

قالت:

ـ والحروب من يقوم بها؟ والأسلحة ماذا يفعل بها الناس؟

قلت لها:

ـ وإذن، فحتى لو خلق الله الديانات لتصلح أمور الناس، فالحروب ستبقى والأسلحة ستبقى.

أغمضت عينيها، وبدت كالمتأملة، ثم قالت:

ـ الكراهية هي التي تولد الحقد بين الناس، والحروب. هل تعرف؟ الكراهية تبدأ بين الأخ وأخيه، وتنتشر حتى بين شعب وآخر، وبين دولة وأخرى. لماذا؟

حين لم يكن لدي جواب أقدمه لها فقد فتحت أصابعي وخللتها في خصلات شعرها ثم نفشته، ولملمته بين أصابعي فشممت رائحته وقبلت خصلاته وعادت ميراي ترتخي وتتحلل وتنام في حضني فأحضنها وأعري صدرها وأنحني فوقه ونار أنفاسي تلتهب وأنا أرى نهديها يخفقان فأرتعش.

مرات التقينا في المقبرة اليهودية، وقد كنت أحسب أن ميراي مغربية مثلي، ولم أعلم أنها سوف تصبح إسرائيلية.

بعد أن التقينا في إحدى المرات ودخلنا المقبرة اليهودية، فعانقتها وقطفت منها بعض القبل، خرجنا من المقبرة وودعتها ثم عدت إلى دارنا فوجدت في جيبي تلك الطاقية التي هي لعزرا أخ ميراي، ولما وضعتها مرة في مكان فقد رأتها أمي، وتفحصتها، ثم قالت لي:

. عبد الرحيم. من أدخل رائحة اليهود إلى بيتنا؟ الرائحة هي التي جعلتني أجد هذه القريعية في هذا المكان.

سألتها:

. آ الوالدة. الله يهديك. واحد يهودي نزل من الملاح ونحن رميناه بالحجارة، وأخذناها منه.

بدت غاضبة وقالت:

. عبد الرحيم وأنت العاقل. لماذا أولاد الحومات يضربون اليهود بالحجارة؟ اليهودي إنسان، ونحن نعيش مع اليهود منذ مئات من السنين.

لكني لما سألتها عن رائحة اليهودي التي تكرهها دون سبب لم تجب. ومع إلحاحي فقد قالت إنها قد سمعت أن لليهود رائحة الجيف تفوح من ثيابهم وحولهم كما لا تفوح من أي بشر، فاتجهت نحو غرفتي، وشممت ثيابي، وبالفعل، فقد شممت فيها رائحة ميراي، وكانت رائحة عطرها لا رائحة الجيف.

خططنا بسرية تامة للهجرة إلى باريس. فهناك أردنا أن نعيش وحيث لا

ينكر علينا أحد أن نعيش الحب . وضحكت ميراي ثم قالت لي

ـ هو حب العمر كله أو يجب أن نفترق.

قلت لها:

ـ أهذا هو الحب اليهودي؟

فقالت:

ـ هذا هو حب اليهوديات لغير اليهود.

لكن وقبل أن ننجح في السفر، جاءت حرب يونيه ٦٧، وتأجج شعور المغاربة بانتصار العرب على إسرائيل، التي بدت في أول خطاب لجمال عبد الناصر ليست سوى دويلة صغيرة يمكن محوها والرمي باليهود إلى البحر. وأردنا للأراضي الفلسطينية أن تتحرر، وفرحنا، وهللنا وكبرنا، ثم جاءنا أخبار عن انتصار إسرائيل، وأن الطائرات الحربية المصرية لم تقلع من مطاراتها، بينما قيل لنا إن ربابنة عسكريين أمريكان هم الذين كانوا يرمون بقنابل النابالم في نهر الأردن، ولما عرفنا أن احتلالا لأراض جديدة قد وقع وأن أرض فلسطينية قد توحدت في الاحتلال، فقد بكينا، ولم أدر كيف ألتقي بميراي، فأجلت اللقاء حتى جاء يوم ركبت فيه الحافلة من(باب بوجلود) إلى (ساحة المقاومة)، وفي محطة (الملاح) صعدت ميراي. تهيأت لتقبيلها لكني أخذت حذري من الركاب، فأردت أن أهمس لها مغافلا الأنظار نحوها ونحو كل اليهود الصاعدين إلى الحافلة من محطة الملاح.

انطلقت الحافلة. اقتربت من ميراي. حاولت أن أقرأ ما في عينيها.

رأيتها تتجاهل نظراتي. عندما نزلنا في (ساحة المقاومة) سارت بخطوات سريعة وهي لا تلتفت نحوي. حسبت ذلك تسترا على علاقتنا، وأنها لا تريد أن يفتضح الحب، بعد حرب أدمت قلوب العرب والمسلمين وأفرحت اليهود.

مشيت وراءها. أحست بخطواتي. التفتت نحوي وشتمتني بقولها:

ـ **sale race** (جنس قذر).

شعرت بالمهانة. حسبتها تتمادى في التمويه عن علاقتنا وأنها تمثيل دور الكارهة لي كعربي ومسلم. اقتربت منها. أمسكت بذراعها. تنصلت مني وقالت:

ـ اسمع. إياك أن تقول إنك كنت تعرفني. كنتُ أعرفك قبل أن ترفع الحرب رؤوس اليهود، أما اليوم فأنتم العرب والمسلمون حقراء أذلاء.

صفعتها. قبل أن يتجمع الناس حولنا أخليت المكان بسرعة وأنا في شبه غيبوبة، إذ لم أصدق أن تأتي الحرب لتغير ميراي من الحب إلى الكراهية، ومن التعايش إلى التشفي، ومن الاحترام إلى التحقير. وضعت حَجَرًا على قلبي. أخذت أتابع الأخبار، فعلمت أن إسرائيل قد احتلت الجولان ووحدت القدس تحت سيطرتها كما احتلت سيناء وقطاع غزة وقنال السويس. عرفت لماذا أصابتها الغطرسة، وأن وقتا قد جاء ليمارس اليهود غطرتهم تحت راية دولة إسرائيل. بكت وأنا أتحسر على ميراي التي أصبحت إسرائيلية، ولم تعد يهودية مغربية، وتوقعت أن تعيش بقية حياتها، لا في (مَلاَّحٍ) فاس، ولكن في إسرائيل، وقد أصبحت إسرائيلية.

النوم بين بابين

تطورت قضية طاقية عزرا إلى ما هو أفظع، فقد جاء يوم عاد فيه والدي قاسم الأزرق من محل الجزارة إلى البيت، فرأيته يتهامس مع والدتي لالة خيرة، ثم هجم علي بالضرب والركل ثم دفعني نحو باب الدار بركلات حتى فتحه ورمى بي إلى ظلمة الدرب، وقال:

ـ سر آ الكلب. اخرج من داري.

سألته وأنا أقع تحت هول المفاجأة:

ـ ما الذي فعلته يا أبي؟

أطلعني على طاقية عزرا، ثم رماها في وجهي وقال لي:

ـ ابتعد عن داري وعن الحي.

قلت له:

ـ ليس لي مكان أذهب إليه.

قال بغضب:

ـ اذهب إلى الملاح وعش مع اليهود.

ثم أغلق الباب من دوني. كان الوقت ليلا وكنت جائعا وأرتعش من البرد، ولا مكان لي أنام فيه.

مشيت بين الدروب والطاقية في جيبي وأنا أبحث عن مكان أتخلص منها فيه. لعنت اليوم الذي أعطتني فيه ميراي تلك الطاقية لنضلل بها حارس المقبرة،

وحتى يحسبني يهودي فيسمح لي بمرافقتها. رميت بالطاقية في مزبلة، ثم واجهني باب وقد أغلق في وجهي، وعندما عدت أدراجي وجدت بابا آخر قد أغلق في وجهي، فنمت بين البابين، على قارعة الطريق، منتظرا أن يصبح الصباح.

في سوق النخاسة

قال النخاس هذا ولد سليم من العيوب، ليس به جرب، ولا هو أصم أو أبكم. لم يُبع من قبل ولذلك فهو لم يأبق كما يأبق العبيد. رفع ذراعي متباهيا، وأطلع الحاضرين على أسناني الناصعة البيضاء. سأل:

ـ من يدفع، بكم نبدأ؟

تلقى بعض الإشارات. قال نبدأ بثمانين.

تلقى إشارات أخرى فأخذ يردد:

ـ ثمانين، تسعين، مائة، ألف، ألف وخمسمائة، ألفان. حلال عليك. ها هو البائع يكتب معك عقد البيع.

تقدم رجل هو الذي وجدني أنام بين البابين، ثم أخذني إلى بيته، فأعطاني فراشا أنام عليه، وطعاما تناولته، ثم في الصباح استدرجني، دون أن أعلم، إلى سوق النخاسة.

صرخت في الرجل:

ـ متى كنتُ عبدا لك حتى تبيعني؟

قال للمشتري:

ـ هو ألف العيش في بيتي، ولم يكن يعلم أنه عبد لي، فأنا لم أعامله

معاملة السيد لعبده.

أخذ العدل يكتب عقد البيع. سأل البائع:

ـ ما اسم العبد؟

قال له:

ـ عبد الرحيم.

صرخت:

ـ أنا لستُ عبدا لأحد.

في تلك اللحظة تساقط الثلج على سوق النخاسة، فابيضَّ كل شيء. ابيضَّ وجه النخاس ووجه المشتري فهربت من السوق جريا. ولم يكن ذلك سوى حلم حلمته وأنا أنام بين البابين، فقد سمعت مصراع الباب يفتحه الحارس ورأيت على ضوء قنديل والدي قاسم وهو يركلني في ظهري ويقول لي:

ـ تعال أيها الكلب. عد إلى الدار، وإن عدت إلى الملاح فسوف أذبحك.

قال له الحارس:

ـ ولماذا سوف يعود إلى الملاح بعد أن أصبح الحي خاليا من اليهود، فكلهم هاجروا إلى إسرائيل؟

الباب السادس

[باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق بالنازلة، وهي حادثة تراوحت بين الهزل والجد، فهي على ما يعتقد عبد الرحيم سفر في صحراء، كأنها صحراء عمره، ولكن هي الصحراء نفسها، التي لا يحدها غير الصحراء.]

حفل ساهر في صحراء، كصحراء العمر

هي الصحراء وأنا رأيتها لا تحدها حدود غير الصحراء، لكني رأيتها وأنا داخل تلك الفيلا الواقعة وسط خضرة وماء وتلألء أضواء، فقد كان الوقت ليلا، وكانت الصحراء بكل عطش الجمال وعطش الناس توجد فيما حولي وفي حلقي الناشف وتحت لساني.

مخافة أن يقع لي ما هو أفظع، فقد لذت بالصمت بينما هم كانوا يضحكون ويتناولون مما في الأطباق التي أمامهم من طعام، ويعبون كأسا بعد أخرى، ويثرثرون في كل شيء.

ولكن أحدهم اتجه نحوي فجأة وقال لي:

. أراك تشرب الكوكاكولا زجاجة بعد أخرى.

فقلت:

. عطشان.

قال:

.كل هذا العطش؟

قلت:

. لو كانت الجمال تشرب الكوكاكولا لأوردناها منها، ولكنها لا تشرب غير الماء، والماء غير موجود في هذه الصحراء.

ضحكوا. حاولوا أن يركزوا نظرهم علي، وقال أحدهم:

ـ إنه يرى الصحراء الآن، فماذا سيرى بعد أن تبدأ السهرة؟

وقال آخر:

ـ يقول نورد الجمال الكوكاكولا، فأين هي الجمال؟

حسبتهم محششون، وقد حششوني من غير أن أدري، فربما كانوا قد وضعوا شيئا من الكوكايين في زجاجات الكوكاكولا التي كان خادمهم يقدمها لي واحدة بعد أخرى وهي مفتوحة. وتذكرت أنني لا أعرف واحدا منهم، وأنهم قد جاءوا بي إلى هنا بطريقة غريبة تشبه الاختطاف، حينما وقعت تلك النازلة.

قبل أن أعود إلى النازلة في الفيلا الوقعة وسط الخضرة والماء وتلألؤ الأضواء التي أنا فيها الآن، رأيت أحدهم ينهض من مكانه، ويقترب مني ويحدق في عيني تحديقا فاحصا، ثم يعود إلى مكان جلوسه.

كانوا سبعة أو ثمانية، بعضهم يجلسون على البسط والآخرون يجلسون على كراس من خيزران، والثريات تتدلى من السقوف باهرة بالأضواء الخلابة، وأغراس خضراء طافحة في القاعة والممرات وتماثيل بحجم الرجال تمد أياديها بأطباق بها فواكه استوائية، ولا شيء يسمع غير همسات الرجال وضحكاتهم.

كانوا يرتدون ملابس صيفية، وصدورهم عارية وأذرعهم مشعرة وبعضهم يضعون نظارات شمسية حتى ونحن في الليل في هذه القاعة الباهرة الأضواء.

أصابني القنوط وانتفخت بالغازات وأحسست برغبة في الضراط فقلت أنهض وأسرح قدمي في الحديقة، فرأوني أنهض وأغادر القاعة فلم يعترض علي أحد، وبذلك عرفت أنهم أناس طيبون، لا يمكن أن يعتقلوني هنا لغير ذنب جنيته في حقهم، ولاشك أنهم سوف يعيدونني في آخر الليل إن تأخرت السهرة إلى بيتي في حي الأطلس مع نفس السيارة التي جاءت بي، ظنا منهم أنني مازلت أقيم في تلك الشقة، بينما سأنبههم ليأخذوني إلى (مستشفى سيدي بوجيدة)، لأنني أصبحت أقيم هناك مع النزلاء، ولاشك أن سائق السيارة سوف يمتثل، وقد يسأل بعض أسئلة الفضول عن سبب إقامتي في المستشفى، وهو نفس المكان الذي أعمل فيه.

عليَّ أن أنام، وأن أعود مع نفسي ما يمكن أن أحكيه عن الناس أين يعيشون، وماذا يأكلون، وأية لياقة ولباقة بها يتصرفون.

خلال خروجي من القاعة اتجهت نحو الحديقة. وجدتها متاهة فخفت أن أضيع فيها. سرت الهوينا أتجشأ الغازات وأضرط ضراطا طويلا. خلال ذلك رأيت فيما يشبه الظلام، وفي طرف الحديقة، جِمالا تنوخ وهي تخرج ألسنتها التي بدت لي وكأن الشوك ينبت فيها. صرخت وقلت:

ـ الجمال ستموت من العطش.

جاء عدد من الرجال الظرفاء اللطفاء، المبتسمين، فسألني أحدهم:

ـ مولاي. هل نسقيها من المياه المعدنية، أم من الكوكاكولا، أم نسقيها من الويسكي؟

أعجبتني كلمة "مولاي" التي لم يسبق أن ناداني بها أحد. قلت له:

. أيها الحمار، متى كانت الجِمال ترد الماء المعدني والكوكاكولا والويسكي؟

قال:

. لقد أوردناها فوردت من الماء ولكن يبدو أنها تريد غير ذلك.

حسبت أن الرجال قد خلطوا بيني أنا عبد الرحيم الأزرق الممرض في (مستشفى الأمراض العقلية) ب(حي سيدي بوجيدة) بفاس وبين أمير أو ملك يأتي من زمان غير الزمان، أو من كل الأزمان. وخشيت إن هم اكتشفوا أنني لست أميرا أو ملكا، أن يسألوني عما جاء بي إلى هذا المكان، وكيف دخلته رغم وجود الحراس على الباب، ثم ينكلون بي ويرمونني في الصحراء لأموت من العطش. وأنا في مخاوفي، تخلصت من الموقف بالتظاهر برغبة في التجول في الحديقة، فغادرت القاعة، ومشيت في ممرات تلك الحديقة وأنا أتجشأ وأضرط ضرطة بعد أخرى. أدركت أنهم يراقبونني فعدت إلى القاعة الكبرى التي تعقد فيها السهرة. جلست. اتجه أحدهم نحوي وقال لي:

. هل اطمأن خاطرك على الجمال؟

لم أرد عليه، بل أشحت بوجهي عنه، فقال لي:

. الجمال بخير يا مولاي.

واتتني فكرة لكي أتخلص من الورطة التي أنا فقيها، فقلت للرجل:

. أرغب في أن أركب جملا.

قال:

. هل تريد ذلك الآن يا مولاي؟

قلت له:

. الآن.

خرجنا أنا وهو إلى المكان الذي ترابط فيه الجمال. اقترب من أحدها. أمره بأن يبرك على الأرض. أشار إلي وقال:

. تفضل يا مولاي.

ركبت الجمل. أمره بالنهوض. حركة نهوض الجمل أصابتني بالفزع. لكني بمجرد ما استويت فوقه، أمرته بأن ينطلق، فسار بي. لا دليل. تهت في الصحراء. طلبت من الجمل أن يعيدني إلى فاس، وإلى (حي سيدي بوجيدة)، فلم يفهم قصدي وبقي يسير على غير هدى، وها هو يسير، وأنا ما أزال تائها في الصحراء إلى الآن.

مولاي إدريس الوزاني

مريض يقيم عندنا في المستشفى، قسا عليه أهله، وكتفوا يديه ورجليه بالحبال مع سلم خشبي ثم أسندوا السلم إلى جدار في باحة الدار. تركوه يفعل كل شيء على السلم، ينام ويبول، فإن توسل إلى أمه وهو يطلب منها أن تقدم له ماء يشربه، وأقبلت عليه بالماء، فهو يبصق في وجهها ويشتمها بشتائم مخجلة، لا أحب أن أذكرها لكم، كما ذكرها لي، فهو من وثق بي فقص علي سيرته كمجنون، وما أصابه من أهله من تعذيب. ويذكر أنه ذات

يوم جمعة، اجتمعت الأسرة بكامل أفرادها على مائدة طعام الغذاء، وكان كسكسا فوقه خضر ولحم وفير، فحلبت الرائحة ريقه، وأخذ يتوسل. سألته أمه:

. ماذا تريد آ مولاي إدريس؟ الكسكس بعد أن نفرغ من تناوله، أنا سوف أطعمك منه، فلا تبصق على وجهي.

قال لها:

. يا أمي سامحيني. أنا أطلب الصفح، فقد عدت إلى رشدي، ووجدت أن الجنة تحت قدميك.

قال له والده:

. يا مولاي إدريس، قبل أن تفكر في الدخول إلى الجنة، عليك أن تعود إلى رشدك.

قال لوالده:

"يا أبي سامحني، فأنا كنت لا أملك زمام أمري، أما الآن فأنا بخير، وكل ما أطلبه هو أن تفكوا وثاقي بالحبال وأن تُنزلوني من هذا السلم لكي أغسل يدي بالماء والصابون ثم أجلس معكم على مائدة الطعام، كما يجلس ابن عاقل مع أبويه وإخوته".

أشفق عليه والده، ونهض ليفك وثاقه. ساعده على الافتراق مع السلم الذي بقي مقيدا عليه لعدة أيام. نظر مبتسما إلى يديه ورجليه وما يظهر عليهما من آثار للحبال، ثم نظر إلى السلم، وإلى عيني والده، فعاد يبتسم،

وقال:

"أعرف أن رائحتي كريهة، فقد كنت أتبول وأقضي حاجتي في سروالي، وكنتَ أنت، أبي تغسل جسدي بخرطوم من المياه الباردة، ثم تقبل أمي بتنظيف الأرض التي تحت قدمي. لا أبدا. لا يمكن أن أجالسكم على مائدة الطعام وأنا قذر. أريد أن أستحم ولو بالماء البارد وأن أغير ملابسي الوسخة بملابس نظيفة".

كلام جعل الأب يستعيد الثقة بولده المجنون ويحسب أنه قد عاد إلى رشده. أخبره بأن نظافته سوف تتطلب وقتا، وأن الكسكس جاهز لتناوله جاهزا. قدمت له والدته صحنا به كسكس وملعقة، في مكان معزول، فتناول ذلك بسرعة ثم أقبل كالهاجم على الصحن الكبير الذي تتناول منه العائلة، وجمع في فمه بصقة كبيرة ثم بصقها على الصحن.

في الغد جاؤوا به إلى المصحة العقلية، وكنت أنا أول من استقبله. عندما عقد المسيو جاكار معه أول جلسة انقض عليه وكاد يقتله. حقناه بحقنة المورفين، ووضعناه في غرفة معزولة، فظل يصرخ يقول:

ـ الوثاق الذي أوثقني به والدي في بيتنا خير من هذا السجن، لأن ليست فيه صناجات تصعق بالكهرباء.

الدماء ما تزال تنزف والضحايا من المدنيين

قلتها في ذهني وأنا شارد، رغم أنني كنت أحضر مؤتمرا للسلام العالمي، ترعاه الأمم المتحدة.

قلتها، فقد قلت:

ـ لا سلام يمكن أن يحل بالعالم، ودماء المواطنين العزل، ستظل تنزف، وقابيل سوف يقتل هابيل ملايين المرات.

قال لي أحد أعضاء مفوضية السلام في العالم:

ـ إنما أنت آ عبد الرحيم الأزرق تمثل في هذا المؤتمر العالمي للسلام فئة المرضى العقليين، وكل ما نخشاه أن تكون أنت نفسك مريضا عقليا.

لم أرد عليه، فقد كنت أستعد للكلمة التي سوف ألقيها في المؤتمر. عندما حان موعدها، وأعطيت لي الكلمة، قلت في ذلك المحفل الذي تحضر فيه عدة دول:

"اسمحوا لي أيها السادة، أن أتحدث باسم المرضى العقليين، كما تسمونهم، والذين يشكلون حسب الإحصائيات عددا مهما من سكان هذه الأرض، التي نفخر بالسكن فوقها، ونتحمل مسؤولية الحفاظ عليها وحمايتها من أجل الانتفاع بخيراتها. موضوع مداخلتي ينصب على الأمراض العقلية، وأنا أستند في هذه الدراسة إلى أن نسبة مئوية هامة من الذين حكموا العالم كانوا مرضى عقليين. يعني ذلك أن المواطنين العزل، الأبرياء، الذين يقعون ضحية هجمات بشتى الأسلحة، إنما يحكمهم مرضى مصابون بالأمراض العقلية، وأنا في هذه التمثيلية التي أقوم بها في هذا المؤتمر، أدعو الكثير من رؤساء العالم لأن يلتحقوا بنا في المصحة العقلية، التي توجد في فاس، والتي يسيرها الدكتور جاكار، والقصد من العلاج هو أن يتواضع الطغاة، ويعلنوا تواضعهم، وأن تكف الدول التي تتوفر على السلاح النووي عن تهديد مثيلاتها التي تملكه. وإذا كان هذا مؤتمرا للسلام، فسوف يُعقد بعده مؤتمر

آخر للسلام، يعلن فيه المسيو جاكار أن رؤساء الدول قد تمت استضافتهم في أحسن الظروف وأن حالتهم النفسية قد خفت فيها درجة العدوانية نحو دول أخرى، ولم يبق سوى أن ينعقد فيه مؤتمر آخر للسلام العالمي.

ولينعقد.

في المستشفى، حضر عدة أمراء وملوك ورؤساء من أجل أن يبرهنوا للعالم أنهم ليسوا مرضى عقليين، في تحد كبير. أخذ الخدم يقدمون لهم أنواع الطعام والشراب، ثم قرر المسيو جاكار أن يعزلهم عن بعضهم حتى لا يقع الشنآن بينهم، أو أن يفكر أحدهم في مغادرة المستشفى وإعلان الحرب على دولة جارة، أو أن يصاب ملك أو أمير أو رئيس دولة بحالة يسميها المسيو جاكار بحالة الاستعلاء، وهي حالة مرضية ترتبط بعقدة العظمة، تجعل المصاب بها يحسب نفسه متعاليا عن باقي الأمراء والملوك والرؤساء الآخرين، ولذلك يتغطرس، وفي غطرسته يتحالف مع دول الشر، ويرصد أموالا طائلة للمخابرات وشراء الأسلحة.

الفصل السابع

[باب في الأيام البيضاء والأيام السوداء التي عاشتها المصحة العقلية، وفيه نعرف هل عبد الرحيم الأزرق قزم أم أن المصحة كلها حومة للأقزام]

أسد يضاجع غزالة

مرة قال لي نزيل في المصحة اسمه عبد السلام، انظر تر أسدا يضاجع غزالة بدل أن يفترسها، والغزالة سوف تلد غزالا على هيئة أسد، يكبر ويسير في الغابة بين الحيوانات، والأسد ابن الغزالة يتذكر اللحظة التي التقى فيها والده الأسد بأمه الغزالة، والحيوانات كلها تنظر إليه نظرة شك، تختبر طباعه فهل سيكون وديعا كأمه الغزالة أم سيكون متوحشا كأبيه.

استأنس بي عبد السلام في غربة كان يشعر بها في المستشفى، لكنه كما يقول، لا يجد راحته إلا في الغابة، وهي غابة كبيرة فيها أسود وغزلان، وفيها ضباع وذئاب، وفيها الصيادون.

قلت له:

. يا عبد السلام، ما الذي يصطاده الصيادون في الغابة؟

ضحك وقال لي:

. يصطادوننا أنا وأنت آ السي عبد الرحيم.

ضحكت وقلت له:

. ولكن أنا وأنت لسنا حيوانات.

قال:

. أنسيت؟ أنا وأنت غزالان أبوهما أسد وأمهما غزالة، ولن يحمينا من الصيادين سوى الأسود.

قلت له:

ـ أنت في مستشفى ولست في غابة.

قال لي:

ـ بل أنا وأنت في غابة. انظر تر الذئب والضبع والقنفذ، وتر القرد والأسد والحمار، وغيرها من الحيوانات.

ثم أشار إلى المرضى وقال:

ـ هذا قرد، وهذا ذئب، وهذا حمار.

لم يغضبهم كلامه، بل إن أحدهم أخذ يقلد عواء الذئب وآخر ينهق كالحمار وآخر يزأر كالأسد. أتى المسيو جاكار، فضبطني أقلد صوت قرد، وقال لي بغضب:

ـ في هذه المرة، مسيو عبد الرحيم، عليك أن تحقن نفسك بالمورفين، حتى يهدأ روعك.

قلت له:

ـ يا دكتور إنما أنا أردت أن أجاري المرضى في أوهامهم وخيالاتهم.

قال لي:

ـ هذا أمر جيد. لكني رأيتك وقد أصبحت قردا، أقصد، قردا قزما. ألا يمكن أن يكون من بين القرود أقزام؟

اقترب منه عبد السلام، حتى أصبح لصيقا به، ثم ركز عليه نظره، وقال له:

ـ الحقنة لك أنت، مسيو جاكار.

ضحك المرضى وأخذوا يرددون:

ـ طبيبنا مريض مثلنا.

ثم قال أحدهم:

ـ هل نتمكن من معالجته؟

وقال آخر:

ـ مرضى يعالجون طبيبهم؟

بدا المسيو جاكار غاضبا، وقال لي:

ـ حقنة للجميع.

ثم مضى وهو يردد بصوت مسموع:

ـ أنا مريض؟ هل أنا مصاب بالذهان أم بالفصام؟

ضحك المرضى. أمرتهم بالصمت والتزام الهدوء، فقد انتهت حصة الاستراحة. سألني أحدهم:

ـ هل نحن في غابة، أم في سجن كبير؟

قلت له:

ـ أنت من عليه أن يقدم الجواب.

سرت في أحد ممرات المستشفى وأنا أضحك. حالما رآني النزلاء

أضحك شاركوني في الضحك، من غير أن يعرف أحد منهم لماذا أضحك، وما هي إلا نكتة حكيتها لنفسي عن الأقزام، فأضحكتني المفارقة بين رجل طويل جدا، وآخر قصير جدا، كما أضحكني ما دار بينهما من حوار. بالغ المرضى في الضحك، وقد انتقلت عدواه من مني إليهم جميعا، وحينما استعدت زمام الأمر، وطلبت منهم أن يكفوا عن الضحك، أشاروا إليَّ وقال أحدهم:

ـ الممرض عبد الرحيم فقد عقله.

وقال آخر:

ـ لم يفقد عقله وحسب، بل أصبح قزما.

عجبت لذلك المريض كيف عرف ما كنت أعيشه في عالم النكتة التي التقى فيها الرجل الطويل جدا مع رجل قصير جدا، ولا أدري هل كان يقرأ أفكاري أم أنه مثلي كان يحكي النكتة لنفسه. ثم سمعت أحد المرضى يقول:

ـ الممرض عبد الرحيم من طول معاشرته لنا أصبح مريضا مثلنا.

قال له مريض آخر:

ـ متى سوف تأتي المهندسة المعمارية شمس الضحى؟

سأله آخر:

ـ ولماذا سوف تأتي؟

قال له:

. لكي تقوم بتوسيع هذا المستشفى حتى يتسع لأكبر عدد ممكن من المرضى العقليين.

قال له آخر:

"نحن السابقون، أما الوافدون الجدد، فعليهم بعد أن يتم توسيع المستشفى أن يقفوا في صف طويل، طويل جدا، يمتد من (حي سيدي بوجيدة) بفاس إلى خارج المدينة، ويمتد من خارطة المغرب إلى خرائط مدن ودول أخرى. لا يكون على من يرغبون في دخول المستشفى سوى أن يقفوا في ذلك الصف الطويل، وهم ينتظرون، ومن يطول بهم العمر هم من يصلون إلى الباب، ليستقبلهم الممرض عبد الرحيم الأزرق، ويأخذهم إلى قاعة الفحص، حيث يتلقون أسئلة من الدكتور جاكار، عليهم أن يجيبوا عنها، ومن خلال أجوبتهم يحدد طبيعة مرضهم. مع اتساع مساحة هذا المستشفى، بتخطيط من المهندسة المعمارية شمس الضحى، سوف توجد غرف خاصة برؤساء الدول، ووزرائهم، وقادة الحروب، وتجار الأسلحة، والعلاج الذي سوف يتلقونه، سيجعلهم ضاحكين أبدا، ناظرين إلى الفراغ بذهول، وكأنهم يعتذرون عن أخطائهم وجرائمهم، بينما سوف يبقون في المستشفى حتى لا يخرجوا منه ليمارسوا أخطاء وجرائم أخرى".

سأله أحدهم:

. ومتي تأتي المهندسة المعمارية شمس الضحى لتوسيع المستشفى؟

قال له الآخر:

. إنها قادمة لا محالة، وعلى كل حمقى هذا العالم أن يتحدوا، وأن يُكونوا

ذلك الصف الطويل الذي يظهر على خريطة العالم من أجل ولوج المستشفى.

قناة تلفزيونية تستضيف عبد الرحيم الأزرق

استضافني برنامج تلفزيوني، وطلب مني مقدم البرنامج أن أجلس على كرسي عال لم أسترح له. فسألته:

. أليس لديكم كرسي غير هذا؟

رد بالنفي. قلت له:

. ليتك أطلعتني على الأمر حتى آتي معي بكرسي مريح.

سألني:

. ومن أين كنت سوف تأتي به؟

قلت له:

. ليس من داري، وإنما من المستشفى الذي أعمل به ممرضا.

سألني:

. ما تخصص ذلك المستشفى؟

قلت:

. الأمراض العقلية.

بدا متعجبا، ثم خط الكثير من السطور على بعض الأوراق، ورفع نظره نحو المصور الذي كان يعد الكاميرا، ومعد الصوت الذي طلب مني بعض

التجارب، وقال لي:

ـ نبدأ.

قلت له:

ـ نبدأ، رغم أنني لست مستريحا للجلوس على هذا الكرسي العالي.

توجه بنظره نحو الكاميرا وقال:

"سيداتي وسادتي، أيها النظارة الكرام، نستقبل في هذه الحلقة ضيفا جديدا، هو السيد عبد الرحيم الأزرق، الذي شاعت حوله إشاعة مفادها أنه قد تحول إلى قزم. ولعلمكم، أيها النظارة الكرام، فهو ممرض بإحدى المستشفيات العقلية. ماذا تقول السي عبد الرحيم؟".

قلت:

ـ أقول أنا لم أسمع بالإشاعة، ولم أعش تفاصيلها، وربما أكون قد تحولت بالفعل إلى قزم.

قال لي معد البرنامج:

ـ لكنك تظهر الآن، على شاشة التلفزيون، كرجل عادي، ولست قزما كما راجت الإشاعة.

قلت له:

"يا سيدي الكريم، ليتك أخبرتني بموضوع هذا الاستجواب، حتى أحضر معي جمهورا غفيرا، يتكون من الضابط مصطفى التواتي الذي حقق في

الإشاعة، ومن الفريق التلفزيوني الذي تابع الإشاعة في الشارع، وكل من استجوبهم، كما كنت سوف أحضر معي نزلاء مستشفى الأمراض العقلية، والمسيو جاكار، وأفراد أسرتي، وكل من يدركون أنني وإن كنت قد تحولت إلى قزم فأنا لست واعيا بهذه الحالة، وربما من رأوني أتحول إلى قزم، كانوا هم الأقزام، ولذلك، كان لزاما عليكم، في هذه الجلسة الشيقة، أن تُحضروهم، ليشهدوا على أنفسهم، أنهم هم الأقزام، وأنني رجل عادي، أحيا كبقية الناس، وإن كان من مشكلة، فهي ليست في كوني قد تحولت إلى قزم".

سأل معد البرنامج:

. وما هي هذه المشكلة؟

قلت:

. المشكلة تكمن في مستشفى الأمراض العقلية.

. الذي تعمل به ممرضا؟

. الذي أعمل به ممرضا.

. وما هي المشكلة؟

. المشكلة أن المستشفى ينبغي أن يتسع ليشمل العديد من المرافق والغرف.

. تقصد أن يكون ذلك من أجل راحة النزلاء؟

. أقصد أن ذلك من أجل استقبال عدد هائل من الرجال والنساء، كلهم ممن اختلت قواهم العقلية، حتى لا أقول إنهم مجانين.

. هل تقصد أن ظاهرة الجنون قد تفشت في المجتمع المغربي؟

. أقصد أنها ظاهرة عالمية، وأن الكثير من رؤساء الدول ووزراء حربيتهم وقادتهم العسكريون هم المرشحون الأوائل لدخول المستشفى.

. وهل ترى أن تكون أنت من يقوم بعلاجهم؟

. أرى ذلك، تحت إمرة الدكتور جاكار.

قال معد البرنامج:

. السيد عبد الرحيم الأزرق، لكي نغلق ملف الإشاعة التي دارت حولك، ومفادها أنك قد تحولت إلى قزم، يحضر معنا الضابط مصطفى التواتي.

أقبل مصطفى التواتي نحو البلاطو ثم قال:

"لو أخبرتموني بموضوع هذه الحلقة، والتحقيق الذي قمت به تجاه الشائعة التي أشاعت أن عبد الرحيم الأزرق كان رجلا عاديا ثم تحول إلى قزم، لأحضرت معي من تابعوا الإشاعة، وكانوا يبلغوني بها أولا بأول، وكيف تلقاها الناس، وكيف سارت على ألسنتهم. في تلك المرحلة التي انتشرت فيها الإشاعة، نحن رجال المخابرات من نشروها لكي نشغل الرأي العام عن الاعتقالات، والسجون السرية، وملاحقة اليساريين في كل مكان.

لقاء آخر بين عباس المرادي وعبد الرحيم الأزرق

عندما سألني عبد الرحيم عن المصور قلت له:

. إنه هو والكاميرا في المرحاض.

ثم سألني:

.كم عدد الأيام التي استغرقها منك التحقيق حول الشائعة؟

قلت له:

. إنها أيام طويلة، أيام سوداء أو بيضاء، لكني لم أقضها كلها في التحقيق، بل قضيتها في مستشفى الأمراض العقلية.

قال:

. والمصور؟

قلت له:

. لا تخف عليه فهو هنا في المرحاض.

قال:

. والكاميرا؟

قلت:

. هي معه في المرحاض فلا تخف عليها.

بدا وكأنه يشك في الموضوع، فقال لي:

"اسمح لي آ السي عباس، أنا أشعر بالدوار، ولعلي في مكان غير مقر القناة التلفزيونية التي تعمل بها، فهل توضح لي هل أنت ما تزال في فاس، تقوم بذلك التحقيق، أم أنك ... إنني أشعر أنني... من حيث المكان فهو مكان للجميع، يستقبل الجميع، حتى موظفي قناتكم، وموظفي جميع

القنوات التلفزيونية. والآن عليك أن تسمح لي بسؤال: أحقا أنا قزم؟".

لم أجد ما أقول. ظل يلح علي في السؤال، فقلت له:

ـ من أجل الجواب عن هذا السؤال يقوم المحققون بتحقيقاتهم.

سألني:

ـ وهل التحقيقات تذهب نحو دحض الإشاعة أم تأكيدها؟

قلت له:

ـ لا أعرف.

قال:

ـ ولماذا لا تجري التحقيقات حول أمور أخرى؟

ـ ذلك شأن المحققين.

ـ وشأنك أنت. ألم تقض أياما طويلة، سوداء أو بيضاء كما قلت، في ملاحقتي أينما حللت وارتحلت؟

قال:

ـ لم أكن سوى عبد مأمور.

في تلك اللحظة خرج المصور من المرحاض وهو يحمل الكاميرا. قلت له:

ـ صَوِّرْ، صَوِّرْ. ها هو يظهر الآن في مخبزة ليشتري خبزه اليومي، وها هو يجلس في مقهى زاكورة بحي الأطلس، وها هو يزور أخته ربيعة في حي

الموظفين، وها هو...

قال لي:

ـ آ السي عباس، ألا تراني أمامك في المصحة؟ إما أن تعقل وإما أن آتي بحقنة المورفين.

اللقاء الأخير بين عبد الرحيم الأزرق ومريم طليقته

قالت لي:

"أنا غلطت، غلطت غلطة كبيرة، فما سمعناه عن الكومسير ثابت أثر فيَّ كثيرا حتى إنك وأنت زوجي عبد الرحيم كنت تأتي لتضاجعني في الحلال فما كنت أرى غير الكومسير ثابت وهو يضاجعني بذلك الشيء الذي يدمي الرحم، والقيء يصعد من معدتي إلى البلعوم، وأنا امرأة، لي رحم، ورحمي مزقه الكومسير ثابت حتى وهو لم يصل إليّ، اللعنة عليه. وتصور آ عبد الرحيم، أنني حتى بعد إعدام الكومسير ثابت، بقيت أراه وهو يضاجعني ويُدخل في أحشائي آلة التعذيب تلك. وإن كنتَ لا تصدق فاسأل نزيلات المستشفى، وخاصة منهن من أطلعتهن على سبب ولوجي إلى المستشفى. خلال الحديث معهن، عرفت أنك على صلة بواحدة منهن، تدعى شمس الضحى، فأصابتني الغيرة، رغم أننا أنا وأنت طليقان، ولنا أولاد وأحفاد. ولدنا عبد الغني له بنتان وابنتنا بديعة لها ولد من زوجها شكيب. صرت أنا جدة وصرت أنت جدا. مع ذلك أطلب منك أن تحلف لي بالله العلي العظيم على أنك لم تُقِمْ أية علاقة مع شمس الضحى. الكذب حرام. فلا تكذب عليّ. وليكن، فما أطلبه منك هو أن تعاملني كما تعامل باقي

النزيلات، وأن تنسى أنني كنتُ زوجة لك، كما يتعين عليك أن تنسى ما وقع لي مع الكومسير ثابت. أما الإشاعة التي راجت حول تحولك من رجل عادي إلى قزم، فقد كنت طرفا في ترويجها. تشفيت فيك، والآن ها أنت أمامي في المستشفى، وسواء أكنت قزما أو لم تكن، فحياتك لم تعد تهمني".

قائمة بأسماء نزلاء المستشفى

دخلت المكتب الإداري وأخرجت القائمة. طالت أسماء النزلاء. صدمني أن يكون أول اسم هو الدكتور جاكار، يليه اسمي: عبد الرحيم الأزرق، ثم تتتالى الأسماء. ومن عجب أنها تضم كل الشخصيات التي حضرت في هذه الرواية، وعددها كثير، كما تضم أسماء أعضاء عدة فرق لكرة القدم وملاكمين مشهورين وأبطال في الكاراطيه، ونجوم من عالمي السينما والغناء، وأثرياء، وملوك ورؤساء دول ورؤساء حكومات ووزراء وعمال على الأقاليم وأعضاء في البرلمانات، ولاعبون في السيرك، وسحرة، ومرابون، وأطفال الشوارع، وعاهرات جميلات أو غير جميلات، وكلهم اجتمعوا في (مستشفى سيدي بوجيدة للأمراض العقلية بفاس)، واللائحة شملت كل سكان المدينة، من عاشوا منهم في العصور السالفة ومن هم ما يزالون على قيد الحياة.

الفهرس